المجلة العلمية لكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بدمياط الجديدة

وصف الحرب
في شعر الأعمى التطيلي

الدكتوره
سارة محمد محمد الأخرش
مدرس الأدب والنقد في كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات بالمنصورة
جامعة الأزهر

العدد الخامس عشر (سبتمبر ٢٠٢٤م)
الترقيم الدولي (٢٣٥٦-٦٣٥٣) ISSN
الترقيم الدولي الإلكتروني (٢٦٣٦-٢٧١٦)
رقم الإيداع بدار الكتب (١٨٧٦٦/ ٢٠١٣)

وصف الحرب في شعر الأعمى التطيلي

ملخص البحث:

يعدُّ البصرَ من أهم الحواس التي يعتمد عليها الشاعر في تشكيل شعره، خاصة فيما يتعلق بفن الوصف، والعجب أن يقوم شاعر مكفوف بوصف المعارك والحروب، وما يحدث فيها، فهذا النوع من الوصف مفعم بالتداعيات المرئية، فهو بحاجة إلى بصير يرسم أحداثه رسما دقيقا، وقد لفت نظري كثرة ما زخر به شعر الأعمى التطيلي من وصف للحرب، حتى فاق المبصرين من شعراء الأندلس الذين شُغِل أكثرهم بوصف الطبيعة ، أو بالغزل، وكأن هذا الشاعر أبى إلا أن يشارك المجاهدين- في دولة المرابطين- ولو عن طريق الجهاد بالكلمة، وقد استطاع الشاعر أن يمتطي ظهر إعاقته بما امتلك من حسٍ مرهف، وسعة خيالٍ، وموهبة مكنته من امتلاك أدوات فنه، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول، وخاتمة، ثم فهرست للمصادر والمراجع ،وقد جاءت المقدمة لبيان دوافع اختيار الموضوع ، والدراسات السابقة، والخطة المتبعة في البحث، أما التمهيد فقد كان بمثابة تعريف موجز بالأعمى التطيلي وروافد شعره، وجاء الفصل الأول تحت عنوان (وصف القائد والجند) وقد ضم مبحثين الأول عن وصف القائد، والآخر عن وصف الجنود، وجاء الفصل الثاني بعنوان(وصف أدوات الحرب) وضم مبحثين الأول (وصف الخيل) و الآخر وصف (السلاح بأنواعه) بينما جاء الفصل الثالث تحت مسمى (وصف أحداث الحرب وآثارها) وشمل مبحثين الأول: وصف أحداث الحرب، والآخر وصف العدو، وما حدث له. ثم كانت الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث، تلاها فهرست المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: وصف ، الحرب ، الأعمى التطيلي، دراسة وصفية، نقدية.

Description of war in the poetry of the blind man Al-tuthili

Abstract:

Sight is considered one of the most important senses that the poet relies on in forming his poetry, especially with regard to the art of description. It is surprising that a blind poet describes battles and wars and what happens in them. This type of description is full of visual repercussions. It needs a visionary person to draw its events accurately. What caught my attention was the abundance of descriptions of war in the poetry of the blind man of Tadul, to the extent that he surpassed the sighted poets of Andalusia, most of whom were occupied with describing nature, or with poetry. It was as if this poet refused to participate with the mujahideen - in the Almoravids state - Even if it was through striving with the word, the poet was able to ride the back of his disability with what he possessed of sensitive sensitivity, imagination, and talent that enabled him to possess the tools of his art. The nature of the research required that it come in an introduction, a preface, three chapters, and a conclusion, then an index of sources and references, The introduction came to explain the motives for choosing the topic, previous studies, and the plan followed in the research. As for the introduction, it was a brief introduction to the blind man and the tributaries of his poetry. The first chapter came under the title (Description of the Leader and the Soldier) and included two sections, the first on the description of the leader, and the other on the description of the soldiers. The second chapter was entitled (Description of the Tools of War) and included two sections, the first was a description of horses and the other was a description of weapons of all kinds. While the third chapter came under the name (Description of the events of the war and their effects) and included two sections, the first: a description of the events of the war, and the other a description of the enemy

and what happened to him. Then was the conclusion, which contained the most important.

results of the research, followed by an index of sources and references .

Keywords: Research plane and methodology – research – result, motives for choosing the research.

مُقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبي العربي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد:

فمن الظواهر الفنية الأدبية التي تلفت الأنظار، وتستدعي الدراسة قدرة الشاعر (المكفوف) على الوصف خاصة وصف المعارك والحروب، وقد عرف الشعر العربي كثيرا من الشعراء المكفوفين الذين برعوا في فنهم بداية من الأعشى، ومرورا ببشار بن برد، وأبي العلاء المعري، وغيرهم، وقد حار النقاد قديمًا وحديثًا في تفسير هذه الظاهرة، إذ كيف لمثل هؤلاء الذين فقدوا البصر منذ الولادة أو بعدها بقليل أن يجيدوا كل هذه الإجادة في تصوير عالم لم يروه، والعجب أن يجمع تصويرهم بين واقع لم يبصروه، وخيالٍ يتوهموه.

ومن هنا وقع اختياري على شاعرٍ ينتمي إلى هذه الفئة (المكفوفين) وهو (الأعمى التطيلي)، وقد وقع اختياري على جانب واحد من الوصف عنده، وهو وصف الحرب دون غيرها؛ كونها أصعب ألوان الوصف بالنسبة للمكفوف؛ لأنها تحتاج إلى رؤية بصرية، وأحيانًا إلى ممارسة فعلية في ميدان الحروب والمعارك، ولأن عصر شاعرنا (دولة المرابطين) عُرِفَ بكثرة المعارك؛ لوقوع هذه الدولة وسط ممالك مسيحية طامعة فيها، كما أن قادتها كانوا يقدسون الجهاد، فأراد أن يشارك المجاهدين ولو من خلال الكلمة طالما أن إعاقته (كف بصره) قد حالت بينه وبين الخروج مع المجاهدين، فهو بوصفه مسلمًا يريد إحدى الحسنين النصر ودفع الظلم ،أو الجنة ونعيمها.

وقد استطاع (التطيلي) أن يمتطي ظهر إعاقته، ليصبح من مشاهير عصره بما امتلك من حسٍ مرهفٍ، وسعةِ خيالٍ، وموهبةٍ جعلته يمتلك أدوات فنه، فأجاد في

وصف المعارك (الحروب) ورسم صورة ولوحة فنية لكل ما يمتد إليها بصلة أو أدوات مثل: (السيف، الرمح، الخيل، الجند، القائد، وصف أجواء المعارك وآثارها والتحام الجنود، وغير ذلك مما يتصل بالحرب) فلم يترك عنصرًا من عناصرها إلا وجلاه، ووصفه وصف المشاهد رأي العين حينًا، والمشارك أحيانًا، وكأنه من أبرز قوادها، أو فرسانها بحيث تشعر مع وصفه أنك أمام محارب صلدٍ، أو مغامرٍ شجاعٍ فتنسى لمن تقرأ، فتعايش عنترة وإعجابه بفرسه وعلاقته به حينًا، وبأبي فراس الحمداني بإقدامه وشموخه حينًا، وقد جمع شاعرنا (التطيلي) بين براعة الوصف وحسن توظيف اللفظ والجرس، وسمو المعاني، وسعة الخيال.

وقد سبقت دراسات تناولت الصورة في شعر العميان، فكانت في معظمها تتعلق بمصادر الصورة ومنابعها، وأنواع التصوير الحسي والتشخيصي، وأثر كف البصر والحالة النفسية على الصورة دون الغوص في وصف الحروب وأدواتها، ومن هذه الدراسات:

(١) أثر كف البصر على الصورة عند أبي العلاء المعري، رسالة ماجستير، مخطوطة آداب القاهرة، ١٩٦٥م، باسم رسمية السقطي.

(٢) الأعمى التطيلي حياته وأدبه، د/ صادق عبدالحليم محمد حسين، رسالة دكتوراة، جامعة الأزهر، ١٩٦٨م، وتناول فيها عصر الشاعر وحياته وأدبه خاصة فن الرثاء والتوشيح.

(٣) شعر الأعمى التطيلي دراسة لغوية، عبد الحميد عليوة، رسالة ماجستير أنجزت عام١٩٨٢م، مخطوط في كلية الألسن، جامعة عين شمس، وقد تناول فيها شعر الأعمى دراسة دلالية، إلى جانب معجمه الشعري.

والحق أن وصف المرأة، أو الطبيعة من وجهة نظري قد يكون أخف وأيسر على

المكفوف من وصف الحرب ووقائعها، فوصف المرأة ،أو الطبيعة قد تسانده الفطرة البشرية في رسم عناصر الجمال ومظاهره، وكما يقولون: (الأذن تعشق قبل العين أحيانًا) كذلك وصف الطبيعة قد تكون هناك بعض المظاهر المساندة كطيب الهواء، وعطر المكان، وشدو البلابل، وغيرها عوامل مساعدة، أما وصف الحروب وما يحدث فيها، وشدتها وغبارها، والدماء والرؤوس المتطايرة فيها فأمر لا شك أصعب على المكفوف.

وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي في تناول النص، وتحليله، وبيان سيماته الفنية.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وثلاثة فصول، يعقبها خاتمة وفهرست للمصادر والمراجع.

- ❖ **المقدمة**: تتناول الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، والخطة التي اقتضاها البحث. والتي جاءت على النحو التالي:
- ❖ **التمهيد**: الشاعر النسب، النشأة، روافد ثقافته.
- ❖ **الفصل الأول: (وصف القائد، والجند).**
  - ➢ **المبحث الأول**: وصف القائد.
  - ➢ **المبحث الثاني**: وصف الجند.
- ❖ **الفصل الثاني: أدوات المعركة (الخيل ، السلاح).**
  - ➢ **المبحث الأول**: وصف الخيل.
  - ➢ **المبحث الثاني**: وصف آلات القتال. (السيف، الرمح،...الخ).
- ❖ **الفصل الثالث: وصف أحداث المعركة، وآثارها على الأعداء.**

- **المبحث الأول**: وصف أحداث المعركة.
- **المبحث الثاني**: وصف آثار المعركة على الأعداء.

❖ **الخاتمة**: بيان موجز لما توصل إليه البحث من نتائج. ثم المصادر والمراجع.

وبعد: فهذه محاولة على الطريق فشعر الأعمى التطيلي في حاجة إلى مزيد من الدراسات النقدية.

والله أسال أن أكون قد وفقت فيما أصبو إليه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الباحثة

التمهيد

الشاعر، النسب، النشأة، روافد ثقافته[١].

نسبه ونشأته:

تكاد تجمع المصادر التي تحدثت عن شاعرنا (الأعمى التطيلي) على أنه أحمد بن عبد الله بن أبي هريره، وأن له كنيتان تردان في المصادر هما (أبو جعفر، أبو العباس)، وأنه كان ضريرًا، ولذا لقب بالأعمى، وأن (تطيلة) موطن أهله، وإشبيلية دار هجرتهم، فهو ينسب إلى قبيلة قيس البلد فيقال التطيلي الإشبيلي.

اخْتُلِفَ في تاريخ وفاته، وجُهل تاريخ ميلاده، فالصفدي يذكر أنه توفي عام٥٢٥هـ /١١٣١م، ود/ إحسان عباس يرى أنه توفي شابًا وحدد عام الوفاة بعام٤٨٥هـ[٢].

أما الأستاذ عبد الحميد الهرامة، فيرى أنه تعدى مرحلة الشباب إلى الشيخوخة، ويستدل على ذلك ببعض أبيات من شعر التطيلي في مثل قوله[٣]:

أفـادني حبـك الإبـداع مكـتهلًا وربمـا نفـع التعلـيم في الكـبر

---

(١) رجعت في التعرف على الشاعر، ونشأته إلى مقدمة الديوان د/ إحسان عباس طبعة المؤسسة الحديثة للكتاب لبنان بيروت جمع وتحقيق وشرح د/ محي الدين الديب، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام، طبعة دار الثقافة بيروت، تحقيق/ إحسان عباس ص ٧٢٨، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي، الطبعة الثالثة دار المعارف ١٩٨٠م ، ج٢ ص٤٥١.

(٢) نقلًا عن مقدمة ديوان الأعمى التطيلي، جمعه وحققه وشرحه الدكتور/ محي الدين ديب، وقدمه د/إحسان عباس، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص١٠.

(٣) الأعمى التطيلي حياته وأدبه، الأستاذ عبد الحميد الهرامة، طبعة المنشأة العامة طرابلس ليبيا، ١٩٨٣م، ص٢١، والأبيات بالديوان ص٧٩.

وقوله[١]:

إذا جـــاوز المـــرء الثلاثيـــن حجـــة فقـد جـاوز العمـر الـذي هـو أفضـل

فـإن بلـغ الخمسـين فهـو علـى شـفا فمـــا بـــاله يعتـــل أو يتعلـــل

فحديث الشاعر عن التعليم في الكبر، وإلمامه بخبرة الحياة، ثم ذكر الخمسين وبلوغها يؤكد أنه لم يمت شابًا بل تعدى على الأقل مرحلة الخمسين، وإن كانت هذه الأبيات لا تجزم ببلوغ الشاعر هذه السن ؛ لأنه يتحدث فيها حديثا عاما ، وليس حديث النفس، إلا أن الممعن في شعر التطيلي يجده يكثر من الحديث عن الشيب ، ونفوره من الملذات واللهو، فيقول[٢]:

هـل الشـيب إلا الرشـدُ جلـىَّ غـوايتي فأصـبحت لا يَخفـىَ علـىَّ صـوابُ

ولعل حديث الشاعر عن أن بلوغ الشيب جاء واعظًا له زاجرًا الملذات يشير إلى أنه لم يكن وصفًا لشابٍ شاب شعره كظاهرة قد توجد في بعض الشباب، والذي يؤكد ذلك الشطر الثاني من البيت السابق حيث يدل على الخبرة والدربة التي جعلته قادرا على التفرقة بين الخطأ والصواب، فتجنب الخطأ والغواية واللهو نابع من خبرته بالحياة، وإدراكه قرب الرحيل، وقد بلغ به المشيب مبلغًا، والدليل على ذلك قوله[٣]:

ولـيس للمـرء بعـد الشـيب مقتبـلٌ نهايـــةُ الـــروضِ أن يعـــتمَّ بالزَّهـــرِ

وإذا اعتمدنا ما جاء في شعره من بلوغه الخمسين، أو يزيد فإن مولده يكون في حدود عام ٤٧٥ هـ أو قبلها.

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص١٤٩.

(٢) ديوان الأعمى التطيلي، ص٤٢.

(٣) السابق ذاته، ص٧٨.

حياته العائلية:

ما سبق كان حديثًا عن نسبه، ومولده، أما عن حياته العائلية فهي أكثر غموضًا، فأحيانًا نجده يذكر امرأة تدعى(زهر) فتشعر من خلال حديثه عنها أنها زوجته فهي تعاتبه على تكاسله في السعي على الرزق بصورة تكاد تكون هي المعتادة بين الأزواج، فيقول(١):

هبت تعاتبني زَهرٌ وقد علمتْ أن العتابَ شجىً في القلب أو شجب
قالت قعدتَ، وقام الناسُ كلُّهُمُ ألا يُعلِّلُك الأثراءُ والرُّتب؟

ويقول(٢):

فقلتُ كُفِّي فما تغْني مقارعتي في أزمة ضاع في أثنائها الأدب
فاستضحكت ثم قالت: أنت في سَعةٍ من أن تُسيمَ، وهذا الماءُ والعُشب

بعد ذلك نجده يرثي زوجته، وتدعى آمنه(٣):

آمن أن أجزع عليك فإنني رزئتك أحلى من شبابي ومن وفري
آمن لا والله ما زلت موفيًا ببينك لو أني أخذت له حذري

فهل (زَهر) كانت زوجته وطُلقت، أم مجرد امرأة عاتبته ،أم كانت له زوجتان، كما تشير قصائده أنه كانت له أمًّا مسنة، وابنا صغيرا، وقد أشار إلى ذلك في قصيدته التي مدح بها الأمير أبا يحيى الحضرمي، وفيها يقول(٤):

---

(١) السابق ذاته، ص٤٩.
(٢) الديوان ص ٤٩.
(٣) مقدمة ديوان الأعمى التطيلي، ص١٦.
(٤) الديوان، ص٢٣٥.

وفي المهـــد مبغـــوم النـــداء وكلمـــا أهـــاب بشـــوقي فهـــو قـــسٌّ وســـحبان

وقد نال (التطيلي) مكانة بين شعراء عصره ذكرها كل من عاصره، أو تناول شعره، فابن سعيد الأندلسي يراه معري الأندلس عندما سئل عنه فقال:" أبو العباس أحمد بن عبد الله التطيلي معري الأندلس"(١).

ووصفه الفتح بن خاقان بأنه: "جاء بالنادر الذي أعجز"(٢).

روافد ثقافته:

من خلال تصفح ديوان الشاعر يمكن الوقوف على مكونات ثقافته التي بها يتشكل عقل الشاعر وفكره، والتي تعدُّ عاملا فعالا في تكوين مخيلته الشعرية، والممعن في شعر التطيلي يدرك أن ثقافته قامت على ثلاثة روافد تتمثل في ثقافته الدينية، والتاريخية ، والأدبية، ومن خلال حصر النماذج التي تدلل على ذلك وجدت أنها تمثل (١٠٦) شاهدا مبثوثة في ثنايا الديوان وسيختار البحث نماذج مختصرة تمثل ألوان هذه الروافد.

أولًا: الثقافة الدينية:

ويمثل القرآن الكريم المصدر الأول لهذه الثقافة، فالشاعر يستدعى الجملة القرآنية؛ ليستحضر المتلقي معناها، ومناسبتها ، وما تستدعيه من ذكريات في نفس المسلم، ومن ذلك ما رسم به الشاعر صورة للأعداء ، وقد أذاقهم المسلمون العذاب، فيصف هذا

(١) رايات المبرزين، وغايات المميزين، ابن سعيد الأندلسي، تحقيق الدكتور/ النعمان عبد المتعال القاضي، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية١٩٧٣م، ص١٢٤.

(٢) قلائد العقيان للفتح بن خاقان، طبعة مصر، ١٢٨٣هـ، وذكر هذا المعنى في " المغرب في حلى المغرب، تأليف ابن سعيد الأندلسي، تحقيق: د/ شوقي ضيف، دار المعارف،١٩٨٠م، الطبعة الثالثة، ج٢، ص٤٥١. وذكر أنه نقلها من الزخيرة والقلائد.

العذاب بالغسلين والمهل، وهما شراب أهل النار، فيقول: (من السريع) [١]:

وأوردوا أعـــــداءهم مـــــوردا رنقـــا مـــن الغســـلين والمهـــل

ولا شك ان الشاعر استدعى من موروثه الديني قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا(٢٩)**﴾[٢].

ثانيًا: الثقافة التاريخية:

وقد تمثل هذا الرافد في استدعائه أخبار الأمم البائدة ،وكثير من أخبار التاريخ العربي القديم ، والتاريخ الإسلامي، وكان الشاعر يوفق بين الحدث التاريخي، وما يقوي صورته، ويرسخ أثرها في نفس المتلقي، وأحيانا لشحذ همم الجنود في المعارك وتذكيرهم بماضيهم المشرق، خاصة وأن دولة المرابطين خاضت كثيرًا من المعارك مع الدويلات المسيحية المجاورة، ومن أمثلة ذلك تشبيه الشاعر حصار (يوسف بن علي بن تاشفين) لطليطلة ثم فكه للحصار بحصار الرسول- صلى الله عليه وسلم- للطائف ثم رجوعه عنها دون فتح فيقول[٣]:

لأمـــر مـــا رددتَ الخيـــلَ عـــنهم وقـــد جَعلـــت محـــاينِهم تحـــين
وأســـوتُك الرســـولُ وإن يشـــكوا فعنـــد جهينـــةَ الخـــبر اليقـــينُ

(١) الديوان: ص١٤٥، وللمزيد من النماذج يمكن الرجوع إلى الديوان ص: ٩٠/٥٤/٤٢/١٧ /١٦٧/١٢١/ ٢٢٣/١٩٢ ....الخ.

(٢) سور الكهف آية ٢٩.

(٣) ديوان التطيلي ص ٢١٨.

ثناهـــا عـــن ثقيـــف والعـــوالي بهـــم لجـــب ودونهـــم رنـــين
فوافـــاهم بهـــم ظلمـــا وخـــوف ومقـــدار أتـــى بهـــم وحـــين

ثقافته الأدبية:

استمد الشاعر ثقافته الأدبية من رافدين الأول: شعراء العربية الكبار من أمثال امريء القيس ، المتنبي ، البحتري، أبي تمام، أبي العلاء المعري وغيرهم من الشعراء العرب على مرِّ العصور السابقة، أما الرافد الآخر فيتمثل في الأمثال العربية والشعبية.

فمن أمثلة الرافد الأول التي وظفها (التطيلي) توظيفا يتفق مع نظرته وحالته النفسية ما جاء في وصفه (حمص) وكانت تطلق على (أشبيلية)، وقد عمها الظلم فيقول(١):

ومـــاذا بحمـــص مـــن المضـــحكات ولكنـــــه ضـــــحك كالبكـــــا

فقد اعتمد الشاعر في وصفه لحاله في أشبيلية ، وسوء الأحوال بها بما وصف به المتنبي مصر وقد ساء حاله بها حين قال(٢):

ومـــاذا بمصـــر مـــن المضـــحكات ولكنـــــه ضـــــحك كالبكـــــا

ويبدو تأثره بعمر بن أبي ربيعة حين يقول التطيلي(٣):

جـــنَّ ســـهيل بالثـــريا جنونـــه ولكـــن ســـلاه كيـــف يلتقيـــان

فلا شك أنه (التطيلي) قد استحضر في هذا قول عمر بن أبي ربيعة في ذات

(١) السابق ص ٣٥.
(٢) ديوان المتنبي شرح البرقوقي، طبعة دار الكتاب العربي بيروت١٩٨٦م، ص ١٦٧.
(٣) الديوان ص٢٣٨.

المعنى حين قال[١]:

أيهـــا المـــنكح الثـــريا ســـهيلا عمـــرك الله كيـــف يلتقيـــان

هـــي شـــامية إذا مـــا اســـتقلت وســـهيل إذا مـــا اســـتقل يمـــاني

أما استخدامه للأمثال العربية والشعبية، فأحيانا يستخدم المثل بنصه في مثل قوله يصور شخصا أتى الممدوح ينصحه جهلا وجورا بأنه (أذل من وتد بقاع) فيقول[٢]:

أذل لـــديك مـــن وتـــد بقـــاع وأقـــبح منـــه مـــن بـــرص بكـــين

فهو يستخدم المثل القائل: (أذل من وتد بقاع) [٣].

وأحيانا يستخدم التطيلي المثل محورا ليتماشى مع المعنى المراد، أو ليساير الوزن الشعري ومن ذلك قوله[٤]:

وعرفـــت شِنشـــنة فقلـــتُ لصـــاحبي: قـــد كنـــتُ أعـــرفُ هـــذه مـــن أخـــزمِ

فالمثل يقول: (شنشنة أعرفها من أخزم) [٥].

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الأندلس بيروت لبنان الطبعة الثانية ١٩٨٣م، ص ٣٢٠/٣٢١.

(٢) ديوان التطيلي ص ٢٢٨.

(٣) راجع مجمع الأمثال للميداني مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٩٨م ج٢/ ص ١٨. وهذا مثل يضرب على كل ذليل، لأن الوتد لا يكون وتدا إلا إذا غرس في الأرض وضرب فوق رأسه.

(٤) الديوان ص ١٩٠.

(٥) الميداني ج٢/ص١٥٥./١٥٦. وهذا المثل عجز بيت لأبي خزم الطائي، وهو جد حاتم الطائي، أو جد جده، وكان له ابن يقال له أخزم، وقيل كان عاقا فمات وترك بنين، وفي يوم وثبوا على جدهم فأدموه ودرجوا جسده بالدماء فقال:

إن بني درجوني بالدم شنشنة أعرفها من أخزم

الفصل الأول

وصف القائد والجند

المبحث الأول

وصف القائد

امتلأ الشعر العربي منذ القدم بذكر الحروب والمعارك وقادتها، ولا عجب في ذلك فالشعر ديوان العرب الخالد سجلوا فيه مفاخرهم ومآثرهم، وقد رسخت صفات وصور للفارس في ذاكرة الشعر العربي، فالفارس معروف بشدته وصلابته ومنعته، وهمته العالية، فهو لا يعرف الكسل أو الركون، فالوطن عنده الحسب والنسب، وهو إلى جانب شجاعته شديد الكرم، شديد الغيرة على القبيلة وأعراضها

والممعن في سيرة مشاهير الفرسان على مرّ التاريخ العربي يجد أن هناك معالم محددة فرضتها عوامل مختلفة تمثلت في البيئة، ومعادن الرجال أصحاب النفوس والهمم العالية، وبالنسبة لعصر شاعرنا (عصر المرابطين) يمكن أن تضيف عاملًا آخر يتمثل في الدفاع عن العقيدة، فقد كانت معظم هذه المعارك مع ممالك مسيحية محيطة بدولة المرابطين، فالدفاع عن الدين يمثل دافعا يضاف إلى ما سبق من دوافع الفروسية الجاهلية، ويجسد الأعمى التطيلي هذا المفهوم في قوله(١):

وعزمــةٌ في جهــادٍ الكُفــر ماضــيةً ... في غَربهــا لا الشــبا الماضــي ولا الأســلُ
يُــدعى الأمــيرُ أبــو يحــي بهــا ولهــا ... إذا تواكــــل أقــــوامٌ أو اتكلُــــوا
خـفَّ الأعـادي بهـا عـن عُقـر دارهـم ... لقـد عَجلـتَ إلـيهم أو لقـد عجلـوا

والمتأمل وصف القائد في شعر الأعمى التطيلي يجده ينبع من مورثه العربي،

(١) الديوان ص١٣٩. الشبا :حد السيف والرماح الطوال.

فصفات الفارس عنده لا تبعد عما رسمه الشاعر العربي له منذ القدم، واسترجاع الموروث الثقافي للشاعر أمر طبعي، خاصة في حالة شاعرنا (إعاقته بالعمى) حيث صورة الفارس لديه تعتمد على الصورة الذهنية المتخيلة من إرثه عن صورة البطل العربي، فها هو التطيلي يصف شجاعة القائد فيصفه بأنه أسد، وأنه كثير خوض المعارك، وقد ذاعت فروسيته حتى غدت مضرب المثل، كما أن شيمه النبيلة غالبة على كل تصرفاته ويجسد ذلك قول التطيلي(١):

هو الأسدُ الوَرْدُ الذي سار ذكره و ليس له إلا البسالة غابُ

وقد وفق الشاعر حين بدأ بالتشبيه البليغ (هو الأسد) فحذف الأداة ووجه الشبه دلالة على أن شجاعة هذا القائد بلغت شأوا كبيرا، ومن هنا جاء قوله: (سار ذكره) بمثابة التأكيد على هذه الشجاعة الخارقة، أما استخدامه أسلوب القصر (وليس له إلا البسالة غاب) حيث قصر شجاعته على ساحات المعارك حتى لا يظن أنها مقرونة بالظلم، وذكره لفظ (غاب) فيه إشارة على أن الفارس يدافع دفاع الأسد عن عرينه، وهناك ملمح في ظلال لفظ (غاب) مرده أنه لا ينازل جبناء بل بواسل لأنه لا يجرؤ ضعيف على اقتحام الغابة ووعورتها تهابها الصناديد، لذا تقدم البيت السابق بيتان في قوله:

يغيظ العدا منه أغر حُلاحِل أشمُّ طُوال الساعدين لبابُ

ولا عيب فيه لامرئ غير أنه تُعاب له الدنيا وليس يُعابُ(٢)

فقد ناسب تقديم البيتين على التشبيه البليغ (هو الأسد) حيث وصْفِه بهذه الصفة

(١) الديوان ص ٤٤.

(٢) السابق ص ١٤٤. حلاحل: سيد في عشيرته شجاع، الطوال: المفرط الطول، وقوله طوال الساعدين دليل على شجاعته.

ناتج عن بلاء حسن (يغيظ العدا)، ومرد الغيظ أن الأعداء لا يستطيعون أن يبلوا مثل بلائه، إذ أكثر فيهم القتل والطعن مما أصابهم بالغيظ الشديد، إذ كيف يدفعون عن أنفسهم هذا الفارس صاحب اليد الطولى، ومن هنا جاء إصرار الشاعر على اختيار لفظ (طوال) بدلا من طويل مما يعني أن يديه مفرطة في الطول ، وهذا يوحي بأمرين الأول شجاعته فيده طويلة تصل إلى الأعداء وليس رمحه مما يعني شدة التحامه بالأعداء، والآخر أنها تتناسب مع لفظ (حلاحل) وهي تعني سيد العشيرة، ومن شيم سيد العشيرة أنه لا يكتفي بالدفاع عن العشيرة ، بل هو متكفل بإطعامها مما يعني أنه صاحب بسالة نادرة، وجود سابغ، واستخدام الشاعر للفظ (لباب) التي من معانيها ملازمة الشيء جاء مقصودا أي أن صفتي الشجاعة والجود ملازمتان للفارس في كل الأوقات ويؤكد ذلك قوله:

لا عيب فيه لا مريء غير أنه تُعابُ له الدنيا وليس يُعابُ

فهذا الوصف للفارس جاء جامعا مانعا كما يقولون، فهو فارس لا يجد فيه الأعداء عيبا، مما يزيد من حنقهم وعجزهم ، وتكرار لفظ (عيب) ثلاث مرات جاء لينفي عن الفارس كل نقيصة حتى زلة اللسان فهو عف تذكر له عيوب الناس فلا يتفاعل ، ولا يخوض مع الغائضين، وقد جاءت هذه المعاني على منوال بحر الطويل؛ ليتح له طول النفس في وصف الفارس، وان كانت نظرية مناسبة الموضوع للوزن الشعري التي قال بها (ابراهيم أنيس) محل خلاف بين النقاد ما بين مؤيد ومعارض.

وعلى وزن الطويل أيضا يصف الشاعر شجاعة، وعزم، وحزم قائد المعارك فيقول[١]:

يمينك أورى إن قدحت من الزند ووجهك أجدى إن قدمت من السعدِ

(١) الديوان ص ٥٩. اشتجر: تداخل بعضه في بعض، ومنه اشجرت الرماح. مادة شجر لسان العرب.

وعزمـك أمضـي حـين يشـتجرُ القنـا مــن الأسمــر الخطــي والأبــيض الهنــدي

والمتأمل لهذا الوصف يجد الشاعر قد استعان بكثير من عناصر الصورة في رسمه لصورة هذا القائد حيث وظف الصورة الحركية ،والضوئية ، واللونية وصهرها في بوتقة واحدة؛ لترسم لوحة فنية لصورة بطل مغوار، ورغم أن الشاعر مكفوف البصر إلا أنه أحسن استخدام هذه المؤثرات التي تحتاج إلى مبصر يعيش تأثيرها، ولكن موهبته، وسعة خياله جعلته يمتطي ظهر إعاقته، وتمثلت الحركة في(القدح، القدوم، الاشتجار) أما الصورة الضوئية فناتجة عن الضوء الساطع الذي هو أقوى من النار، كما أن في السيف والرمح بريق(السمر الخطي، والأبيض الهندي)، ولعل ذكر الشاعر للفظ (اليمين) أي اليد فيه إشارة إلى استخدام الرمح، والسيف فينتج من هذا الاستخدام ضوء من تلاقي السيوف، فقد يكون سبب الضوء الشديد (أقدح من الزند) ناتج من طرق السيوف عند مبارزة الأعداء، كما أن هناك ضوء مبعثه النور البادي على الوجوه سعادة بمقدم هذا الفارس الجواد، وتلمس الصورة اللونية في (الأبيض ،و الأسمر) ، وقد أحسن الشاعر في اختيار الفعل الماضي (قدحت، قدمت) مع أنه يصف استمرارية قوة اليد في ردع الأعداء، ونور الوجه في إدخال السرور على الأحباب وهذه صفات أصيلة في الفارس مما يعني استمراريتها، وكان المناسب لها الفعل المضارع، ولعل دافع الشاعر إلى هذا العدول إلى الماضي، أن الصفتين (القوة ، والكرم) معلومتين سلفا عن الفارس، فقوته مرهبة للأعداء من قبل النزال، وجوده سابغ على القوم من قبل القدوم، فكأن ما سيحدث حدث بالفعل على غرار قوله تعالى: ﴿ **أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)** ﴾[1]، فقد جسدت الصورة معنى البطولة والكرم وافتتح بها الشاعر قصيدته التي نظمها على بحر الطويل، وظل الشاعر يعدد صفات القائد حتى وصل

(١) سور النحل، آية ١

البيت الثالث والاربعين فرسم للفارس صورة بطولية في المعركة فقال(١):

فتاهـا علـى مـرِّ السـنين وكهلهـا إذا هـي جـدت بالمشـايخ والمـرد
وحـامي حماهـا يـوم ترمـي وتتقـي وأسـوتها فيمـا تعيـد ومـا تبـدي

فقوله (فتاها) توحي بأن القائد أبرز فرسان هذه المعارك، وهو الذي يشار إليه بالبنان، فهو القائد منذ الصغر بين الشباب المرد، وكهولته لم تفت من عزيمته فهو القائد رغم كهولته، لقد نال هذه المكانة بين الجند بكثرة معاركه، وحسن بلائه، ولذا فهو حامي الحمى (فتاها على مرِّ السنين) ، والمدافع عن العرين (حامي حماها) ، فهو مشهور بثبات الجأش حين تقذف الحرب الفرسان بلهيبها (ترمي وتتقى) كما أنه فارس يقتدي به الجند في الإقدام والثبات، حتى صار مضرب الأمثال في بدء المعارك وختامها ، فهو أول من يقتحم الصفوف، وآخر من يغادر ساحات القتال (وأسوتها فيما تعيد وما تبدي)، ولا يخفى ما في اللوحة من محسنات جملت الصورة مثل الجناس في (حامي حماها) فالأولى تعني الدفاع والثانية تعني الأرض والعرض، والطباق بين (فيما تعيد وما تبدي).

ومما يؤكد نظرة الشاعر إلى كيفية تنشئة الفارس ما جاء في قوله يمدح (أبا العلاء بن زهر ، وابنه أبا مروان) (٢):

بـني الحـرب مـازالوا يشـبُون حولهـا علـى أنهـا قبـل الفطـام نـزورُ
أحلتـك أعلـى ذروة المجـد همـة لهـا البـأس ردءٌ والسـماحُ سـميرُ
وجُـردٌ عنـاجيجُ ذكـور يَكُرُّهـا علـى المـوت مـردٌ معلمـون ذكـورُ

(١) الديوان ، ص٦١.

(٢) الديوان ص٨٩. عناجيج: جمع عنجوج وهو الرائع من الخيل. لسان العرب مادة (عنج).

كفيـــــلٌ بأرواحِ الأنام مُوكـــــلٌ علـــيمٌ بأســـرار الحِمـــام خبـــيرُ

أطـــل علـــيهم بالمنـــايا غِرارهـــا فهـــل علمـــوا أن الحيـــاةَ غـــرورُ

المتأمل في هذه الأبيات يقف على لوحة رائعة رسمها الشاعر لصورة القائد وفرسه ، وجنده حيث من الطبعي أن تجد صورة الفارس وفرسه وجنده مقترنة في لوحة واحدة، فالتطيلي يؤكد في البيت الأول أن القيادة لا تأتي مصادفة ، بل لابد من الإعداد، فهذا الفارس شب على الفروسية منذ نعومة أظفاره، وكأنه نُذر لهذه الفروسية منذ المهد، فقد شب منذ الصغر في أجواء المعارك فيقول:

بـني الحـرب مـا زالـوا يشـبون حولهـا علـى أنهـا قبـل الفطـام نـزور

ولعل الشاعر استحضر صورة تنشئة الأطفال على الفروسية ومعايشتهم أجواء المعارك من موروث الشعر العربي القديم على غرار قول عمرو بن كلثوم(١):

إذا بلـغ الفطـام لنـا رضـيع تخـرَّ لـه الجبـابر سـاجدينا

إن إعداد الفتية على هذه الصورة، جعلهم يحتلون ذورة المجد بهمتهم، وشدة بأسهم:

أحلتـك أعلـى ذورة المجـد همـة لهـا البـأس ردء والسـماح سمـير

ثم يجمع الشاعر بين وصف الخيل والجند في قوله:

وجنـد عنـاجيج ذكـور يكرهـا علـى المـوت مـرد معلمـون ذكـور

فالأخذ بالأسباب أمر لا يهمله القائد، فالفرس (عنجيج) أي أصيل النوع، قوي

(١) ديوان عمرو بن كلثوم، جمع، وتحقيق، وشرح د/ إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي بيروت، الطبة الثانية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٩١.

البدن، سريع العدو، أما الجنود فهم (ذكور)، ولعل تكرار وصف الخيل والجند بـ(الذكورة) مرده أن الخيل الذكور أقوى، وأكثر جاهزية للمعارك ، فليس هناك ما يعيق استمراريتها في المعارك، فلا حَمْلَ ، ولا إرضاع، مما يجعلها أكثر خبرة، ومعروف أن ذكر الخيل أجلد في المعارك لسرعة عدوه، وقوة بدنه. أما ذكره للذكورة بالنسبة للفارس (الجنود) خاصة بعد وصفهم بـ(مرد معلمون) فقد جاءت لبيان اكتمال قوتهم رغم صغر سنهم، فقد نالوا من الدربة والخبرة بسبب تنشئتهم على الفروسية ما جعلهم يفوقون غيرهم، وحتى لا توحي كلمة (مرد) بأنهم ما زالوا طور التكوين جاء بلفظ (معلمون) للإخبار بأنهم يجمعون بين الفتوة والدربة (معلمون ذكور) .

وما أجمل التصوير الذي رسمته مخيلة هذا الشاعر (المكفوف) حين يصف هذا القائد المغوار، وقد غدا لشدته وكثرة ضربه رقاب الأعداء كملك الموت المتكفل بقبض الأرواح ، فلا مفر ولا مهرب منه فيقول:

كفيـــــل بأرواح الأنام موكـــــل عليـــمٌ بأســـرار الحمـــام خبـــيرً

فاستخدام الشاعر لصيغ المبالغة (كفيل، ، عليم، خبير) وظف توظيفًا حسنًا فكل لفظ مما سبق له دلالته على قدرة القائد من ناحية، وتمكن الشاعر من لغته من ناحة أخرى، وكما هو واضح فإن الصورة يغلب عليها (التصوير الذهني) وهو سمة من سمات شعر المكفوفين حيث تُرْسم الصورة في الذهن وتتخمر حتى تكتمل ملامحها ويستدعيها الشاعر المكفوف وقت احتياجه لها فيستغني بموروثه عن فقدانه البصر، وواضح كذلك ثقافته الدينية التي وظفها في خدمة الوصف ، فمعلوم لدى المسلم ان هناك ملك موكل بقبض الأرواح (عزرائيل)، وأن كل من يراه يعلم بأن حياته قد انتهت، فيزول عنه غرور الدنيا، ويوقن أنها كانت دار الغرور فيقول:

أطـــل علـــيهم بالمنـــايا غـــراره فهـــل علمـــوا أن الحيـــاة غـــرور

ولعل الاستفهام في نهاية البيت (فهل علموا) يجسد خيبة أمل الأعداء في البقاء على قيد الحياة ، فقد أيقنوا أن هذه أمنية كاذبة فقد فاجأهم الفارس الموكل بقبض الأرواح.

وإذا كانت الأمثلة السابقة في وصف الفارس قد نظمت على منوال بحر الطويل، فإن الأمر لم يقتصر على هذا البحر، فقد رسم التطيلي لوحة فنية لصورة الفارس على منوال بحر البسيط، فوصف القائد بأن النصر حليفه في كل المعارك، كما أن من تخيل معنى (البأس) ولم يستوعبه ذهنيا فليأتي إلى ساحات المعارك ليراه مجسدًا في هذا الفارس ويكفيه أن تقع عينه على الفارس، فيخيل إليه أن للبأس عين، وظفر، وناب، فيقول[١]:

أنـــت الـــذي لم يَقُـــد جيشًـــا لمنزلـــة إلا وزُلـــزِلَ عنهـــا البـــدو والحضـــر

إن كـــان صُـــوِّر هـــذا البـــأس في صـــفةً فأنـــت لا شـــك منهـــا النـــابُ والظفـــر

فالشاعر يبدأ هذا الوصف بالضمير (أنت) رغم أن البيت الذي سبقه قد بدأ بالنداء(يا غيث، يا ليث) حيث أراد الشاعر أن يقرر حقيقة ، فجاء الخطاب(أنت) ليؤكد المعنى الذي قرره وهو مصاحبة النصر لكل المعارك التي خاضها القائد، ويقوي ذلك أسلوب الحصر (لم يقد جيشًا لمنزلة إلا وزلزل عنها البدو والحضر)؛ ليكون هذا التقرير حاسمًا، فالقائد لم يُهزم في معركة خاضها في البدو أو في الحضر بل يشهد البدو والحضر أنه زلزل الأرض تحت أقدامهم.

ويصف التطيلي شجاعة (أبي القاسم بن حمدين) بقصيدة من البحر الخفيف،

(١) الديوان، ص٩٢.

فينعته بالأسد الذي يحمي العرين، وبطود من الكرم لا يخشي معه الإملاق، فيقول[١]:

أســـدٌ يمـــلأ العـــرين مـــن البـــأ س وطـــودٌ يحمـــي مـــن الإمـــلاقِ

وفـــتىً مثلمـــا يشـــق علـــى الحُسَّـــا د مـــــاضٍ يـــــوم الكريهـــــة واقِ

أريحـــــي تـــــراه يهتـــــز للبـــــذ ل اهتـــــزاز القضـــــيب للإبـــــراق

فالشاعر يستخدم (بحر الخفيف والتدوير) ويصور القائد بالأسد الذي يملأ عرينه ومركزه بما يمثله من رهبة ومهابة، فليس مجرد أسد بل له سمات خاصة ، وفي الشطر الثاني يراه جبلا راسخا شامخا، فإن كانت مهمة الجبال تثبيت الأرض ﴿**وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا(٧)**﴾[٢] فإن القائد جبل ثابت يحمي من الفقر كل محتاج، فالبيت الأول حمل صفتين من صفات القائد(الشجاعة النادرة التي ترهب وتخيف، وفي الوقت ذاته الملاذ الآمن فهو نهر لا ينضب مهما أنفق) ، ولعل اختيار الشاعر لـ (الطود) في وصف الممدوح بالكرم نابع من الثبات والرسوخ والاستدامة، فالجبل راسخ ثابت مستديم، وفي البيت الثاني والثالث يجعل كل بيت لعلاج، وشرح كل شطر في البيت الأول، فالبيت الثاني:

وفـــتىً مثلمـــا يشـــق علـــى الحُسَّـــا د مـــــاضٍ يـــــوم الكريهـــــة واقِ

يؤكد ما ذهب إليه الشطر الأول من البيت الأول (أسد يملأ العرين من البأس) فهذا فتى، وكأنما جاء التنكير هنا لذيوع شهرته فلا يحتاج إلى معرف، وهذا الفتى أمره شاق على الأعداء؛ لقوته وبسالته وحمايته لكل من معه من الجند، أما البيت الثالث:

أريحـــــي تـــــراه يهتـــــز للبـــــذ ل اهتـــــزاز القضـــــيب للإبـــــراق

فهذا البيت جاء ليعضد ما جاء في وصف الفارس في الشطر الثاني من البيت

(١) السابق، ص ١١٤.

(٢) سورة النبأ ،الآية:٧

الأول (وطود يحمي من الإملاق) حيث يصور الشاعر شدة كرم هذا الفارس، فيصفه بالإسراع إلى السائل بدرجة تفوق سرعة السهم عند الإطلاق، وهذه الصورة من إبداعات الشاعر، فقد أخذ المعنى من زهير بن أبي سلمى في وصفه لكرم هرم بن سنان حين قال(١):

تـــره إذا مـــا جئتـــه مـــتهلا كأنـك تعطيـه الـذي أنـت سـائله

ولكن الأعمى التطيلي أضاف إلى ما قاله زهير حيث وصف زهير سنان بطلاقة الوجه فرحا بمقدم السائل، بينما هو عند التطيلي يسرع إلى السائل بسرعة فائقة فلم يكتف بالتهليل والترحيب، بل أضاف إلى ذلك الإسراع ولا شك أن الإسراع فيه تكريم للسائل أكبر حيث لم يعط لنفسه وقتا للتفكير في البذل والعطاء بل أسرع إليه.

هذا عن جانب الكرم، أما عن جانب الشجاعة والفروسية لدى القائد فيتضح في قوله(٢):

سـل الخيـل هـل جشـمتُها كـل غايـةٍ يهـونُ عليهـا شـدُّها المتـدارِكُ
وهـل عـرفتني ربمـا بـتُّ مغرمـا تدافعـه أكفالهـا والحـوارِكُ
ومـا نكـرت إلا التفـاني بالقنـا وقـد شَـرِقَتْ بالمعلمـين المعـارِكُ
وإلا اختيـالي في ذُرى صـهواتها وقـد نظـرتْ شـزرا إليَّ المهالـكُ

فالقائد هنا يطلب من الأعداء أن تسأل عنه الخيل فهي به خبيرة وعندها الخبر اليقين فهي وحدها تعلم فروسيته، فقد أجهدها شدته وجرأته من كثرة شده لها للإسراع

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني، دار الكتب المصرية، ط١، ص١٤٣.

(٢) الديوان ص ١١٨. الشد: الجري، المتدارك: المتلاحق ، الحارك: الصدر، الكفل: عجز الدابة

واقتحام الصفوف، كما أن الصورة تكشف مهارته، وأنه فارس مدرب ،فرغم تدافع الخيل بصدورها وأعجازها وسرعة كرها وفرها، إلا أنه قادر على التحكم فيها لما له من قدرة ومهارة جعلته يختال في ساحة المعارك، وهذه الثقة في النفس جعلته ينظر إلى المهالك باستخفاف، فيقتحمها بينما تنظر إليه المهالك بغيظ وحنق عاجزة عن ردعه.

فاستعراض القائد لشجاعته، وطلبه سؤال الخيل؛ جاء لبيان قوته ومهارته كما أنه يشير إلى أمرين:

الأول: التأثر الشديد بفرسان العرب المشهورين .

ثانيا: تقمص الشاعر المكفوف شخصية الفارس الشاعر، ويعدُّ عنترة بن شداد من أشهر من تناول قضية سؤال الخيل؛ لإثبات فروسيته ومن ذلك قوله(١):

هــلا ســألت الخيــل يا ابنــة مالــك إن كنــت جاهلــة بمــا لم تعلمــي

يخــبرك مــن شــهد الوقيعــة أنــي أغشــى الــوغى، وأعــف عنــد المغــنم

ويرسم التطيلي صورة تبرز مدى القوة والشجاعة التي يتمتع بها القائد، فيصور رباطة الجأش ، فيقول من السريع(٢):

مُبتســمٌ حيــث المنــايا بــه تُكشــرُ عــن أنيابهــا العَصــلِ

أروعُ ثبــتُ العــزْمِ لا طــائشٌ والهــامُ يحكــي طــائشَ النَّبــلِ

ليــثٌ شــري مفــترسٌ باســلٌ يــذودُ عــن غِيــل وعــن شِــبلِ

(١) ديوان عنترة ومعلقته، تحقيق وشرح الأستاذ خليل شرف الدين ، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، ص٦٢.

(٢) الديوان ص ١٥٨. العصل: السيف المعوج من كثرة الطعن، الغيل: موضع الأسد

مـــاضٍ كنســـل الســـيف لا ينثـــني مُصـــــممُ في الحـــــادث الجـــــزل
ناهيـــــك منـــــه حـــــولا قُلَّبـــــا والمـــوتُ قـــد قـــامَ علـــى رِجـــل

ويواصل وصف الفارس قائلًا:

أغـــرُّ طلـــقُ الوجـــه وضَّـــاحُهُ يَصْـــلى جحـــيمَ الحـــربِ أو يُصـــلي

وصورة هذا الفارس المغوار تذكرك بوصف المتنبي لسيف الدولة الحمداني في قوله(١):

وقفـتَ ومـا في المـوت شـكٌّ لواقـف كأنـك في جفـن الـردى وهـو نائـمُ
تمـر بـك الأبطـالُ كلمـى هزيمـة ووجهـك وضـاحٌ وثغـرك باسـمُ

إن شجاعة القائد من منظور التطيلي تمكنه من التغلب على كل العوائق، وتحقيق كل المطالب ، فلا شيء يمنعه من تحقيق النصر ولو عبر البحار، لقد بلغ من قوته ومهارته القتالية أن يفاجئ الأعداء من كل جانب ، حتى صار كابوسًا يؤرقهم فهم يجدونه في كل اتجاه أينما التفتوا، إنه فارس مؤيد؛ لأنه لا يميل إلا مع الحق فيقول(٢):

يُطـلُ علـى الأعـداء مـن كـل جانـبٍ وقـد أفكـتْ عنـه الخطـوبُ الأوافـكُ
إزاء العـــوالي وهـــو جـــزلانُ باســـمُ ودون المعـــالى وهـــو شـــيحان فاتِـــكُ
حَـرِيٌّ بأن لا يعـدو الحـق وجْهَـهُ لديـه وقـد راغ الألـدُ المُمَاحِـكُ

إنه ينظر إلى السيوف وقد تلاطمت نظرة ابتسام تملأها الثقة بالنفس، فيزداد إقداما، لأنه يقاتل من أجل الحق، ولا يقف إلا مع الحق.

(١) ديوان المتنبي ،دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت،١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م،ج٢، ص ١٠١.
(٢) ديوان الأعمى التطيلي، ص ١١٩. أفكت: صرفت.

والمتأمل لصورة القائد في شعر الأعمى التطيلي يلمس كثرة وصفه للقائد بصفتين أصيلتين، ومتلازمتين وهما صفتا: (الشجاعة، والكرم)، وقد يصف ذلك في عدة أبيات، وأحيانًا يجمعها في بيت واحد، وقد سبق عرض نماذج لصور القائد مجملة في لوحة شعرية، ومما جاء جامعا لوصف القائد في بيت واحد مما يعني قدرة الشاعر على إيراد المعاني الكبيرة في أقل الألفاظ وتلك مهارة وموهبة لا يملكها كثير من الشعراء، حيث يفضل النقاد من يأتي بالمعنى الكبير في لفظ قصير، فيكون قد جمع بين الفصاحة والإيجاز، وكأنما أوتي جوامع الكلم من ذلك قوله(١):

إذا سمعتْ أذناه حي على العُلا فلا الجودُ متروكٌ ولا البأس تاركُ

ومن صور المهابة لدى القائد وصفه بصفات لا تجدها إلا في الأسد ، فكما أن نظرة في عين الأسد ترهب النفوس، وتجعل الأرض ترتجف تحت أقدام الناظر، فكذلك نظرة في عين هذا القائد ترهب الأعداء، وكأن هذه العين نار تلظي ويتضح ذلك من قوله:

وإن أُسْعِرَتْ عيناه وجه صنيعة رأيتَ عيونَ الأُسد وهي مضاحكُ

ويقول في موضع آخر(٢):

يرنُو بشعلتيْ لم يُشعل تصل المنايا بهما إن تصطل

ويحدثنا الشاعر عن شجاعة القائد وجنده مستخدما الصوت، واللون حيث تداخل اللون الأحمر ، والأخضر، وقد اختار الشاعر هذين اللونين ليحدث تناسبا بين الشجاعة والكرم، فالأحمر يناسب أجواء المعارك حيث تكثر الدماء، أما الأخضر

(١) ديوان الأعمى التطيلي، ص ١١٩.

(٢) الديوان، ص ١٧٦.

فيناسب الجود والكرم، وقد عمد الشاعر على إثبات كلا الصفتين (الشجاعة، والجود) فهو شجاع كريم ، ويتضح ذلك من قوله(١):

وهل يُدركُ الحسادُ غَورَكَ في العُلا وإن طالَ مكْرٌ منهم وخِلابُ

إذا نافسوك المجد كنت غضنفرا إذا زأر لم تَثْبُتْ عليه ذئاب

وما احمر إلا من صالِكَ معْرَكٌ ولا اخضرّ إلا من نداك جَنَابُ

ولعل استخدام الشاعر أسلوب القصر فيه مبالغة محمودة في مواقف القتال والمعارك من باب إرهاب الأعداء، وفي إيجاز معجز يصف الشاعر القائد بالإقدام، والحزم، والكرم، وعجز الواصف على حصر صفاته فيقول(٢):

عفافا وإقداما وحزما ونائلا وهيهات يحكي واصفا ما هنالك

ولعل التطيلي في هذا كان مستحضرا قول أبي العلاء المعري(٣):

ألا في سبيل الله ما أنا فاعل عفاف وإقدام حزم ونائل

ولما كانت أغلب المعارك التي يصف الشاعر فيها القائد تدور بين جيش المرابطين المسلم، والممالك المسيحية المحيطة بهم، وكان من دوافعها الدفاع عن العقيدة كان من الطبعي أن تكثر الصفات الإسلامية التي يتصف بها القائد ، ومن ذلك وصف الشاعر لحصار القائد (على بن يوسف بن تاشفين) (لطليطلة) ثم فك الحصار عنها، ليربط بين

---

(١) الديوان، ص ٤٥ .

(٢) السابق ص ١٢١

(٣) حاشية شروح سقط الزند القسم الثاني طبعة دار الكتب المصرية، نشر الدار القومية ١٩٦٤م، ص ٥١٩.

ذلك وحصار الرسول- صلى الله عليه وسلم- للطائف، ثم فكه للحصار فيقول(١):

لأمـــرٍ مـــا رددتَ الخيـــلَ عـــنهم وقـــد جَعَلَـــتْ مَحَـــاينُهُمْ تحـــينُ

وأُســـوتُكَ الرســـولُ وإن يَشُـــكُوا فعنـــد جهينـــةَ الخـــبرُ اليقـــينُ

ويبدو الأثر الديني واضحًا في مطلع احدى قصائده التي نظمها الشاعر من الوافر حيث يقول:

طليعـــة جيشِـــكَ الـــروحُ الأمـــينُ وظـــلُّ لوائِـــكَ الفـــتحُ المبـــينُ

وهـــزةُ رُمحـــكَ الظفـــرُ المُـــواتِي ورونـــقُ ســـيفكَ الحـــقُ المبـــينُ

فذكر الشاعر لـ (الروح المبين، الفتح المبين ،الحق المبين) وكلها معان ، وألفاظ دينية استقاها الشاعر من موروثه الديني، ووظفها في خدمة الصورة؛ ليكسب شخصية القائد الطابع الجهادي، مما يعني اتكاء الشاعر على موروثه الديني حينًا، والعربي حينا، واعتماد الشاعر على المخزون العقلي، أو ما يعرف بالنمط العقلي للصورة يتناسب مع طبيعة المكفوف، فكأنه يرى بعين غيره من الشعراء المبصرين ثم لديه الفرصة لاختيار أجودها، ولديه كذلك من الموهبة القدرة على تطويرها، ومع ذلك تظل لكل صورة سمات وخصائص تميزها عن غيرها من الصور.

وأرى ان الصورة الشعرية المثلى تتمثل في الصور التي تختزن في أعماق الوجدان، وتستقر في ذهن الشاعر حتى تصبح من مكونات فكره حاملة معها موروثه الديني والأدبي ، ثم يقوم الشاعر باستدعاء هذا الموروث وصبه في قوالب تصورية شكلتها موهبته التي تميز بها عن غيره من الشعراء، ووظفها في أغراض ومناسبات تتناسب مع ما يهدف إليه من معان بحيث تصير صورة مختلفة تميزه عن غيره من الشعراء، وهذا مناط السبق بين

(١) الديوان ص ٢١٨.

الشعراء، ولعل هذا ما قصده النقاد القدماء حين تحدثوا عن السرقات وعن الابتكار، أو ما رمى إليه الجاحظ في مقولته الشهيرة (والمعاني مطروحة في الطريق...)[١].

من وصفه للقائد أيضا وصفه له بأنه يمثل الموت للأعداء ، وقد جاء ذلك في وصفه شجاعة القائد (ابن زهر) في قصيدة نظمها على بحر الكامل فيقول[٢]:

ردءُ الكتيبةِ خلفها وأمامَها ... كالموت تلقاه بكلِ مكانِ

وفتى إيادٍ شيبِها وشبابِها ... في كل حادثةً وكل أوانِ

فوصف الفارس أو القائد بأنه كالموت، وسيد الحروب، وفتى الفتيان، والمدافع عن القبيلة كلها معان مأخوذة من موروثه العربي، خاصة وصف الشعراء الفرسان كعنترة، وغيره ممن شاع في شعرهم تشبيه أنفسهم بالموت الذي ينزل على الأعداء، وأنه حامي الحمى، وحديث القوم في الشجاعة والإقدام، وسيفه قاطع ومصقول، ويخلع (التطيلي) هذه المعاني على شخصية القائد (على بن يوسف بن تاشفين)، فيقول من الوافر[٣]:

حسامًا ما انتضاه الدهرُ إلا ... ليعْلَمَ مَنْ يفي ممنْ يخُونُ

صقيلَ المتنِ رَوْنَقُه الأماني ... وماضي الحَدِّ جَوْهَرُه المُنُونُ

ومَضْرِبُهُ جهينةُ كل مَجْدٍ ... وسَلْه فعنده الخبرُ اليقينُ

إذا حَدَّثْتَ في الهيجاء عنه ... فإن حدِيثَه فيها شُجُونُ

إذا اعتمدَ الندي غصّتْ جفانٌ ... وإن شهدَ الوغى صَفِرَتْ جفونُ

(١) الحيوان للجاحظ تحقيق محمد عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م، ج ٧/١٢٠.

(٢) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٢١٣.

(٣) ديوان الأعمى التطيلي، ص ٢٢٢ .

ومما جاء في وصف التطيلي للقائد شجاعته التي تترك الفرسان المعلمون أشلاء ممزقة من كثرة الطعن والضرب، حتى صدأ حد السيف المصقول، حديث الصنع صلب القوام ، وبلغ من كثرة قتلاه أنه استبدل أشلاء القتلى بما يلبسه الفارس من حماية فيقول(١):

يـترُكُ المعلمـينَ في الحـرب كالبُـدْ ... نِ ومـا أُعِلِمُـوا بـه كالنِّعـال

يَخْلَـعُ الغِمْـدَ والخمائـلَ مُعْتَـا ... ضًـا بِبَسْـلِ الأشـلاءِ والأوصـالِ

صَـدِئَتْ صـفحتاهُ مـن مُهَـجِ القَتْـ ... ـلَـى علـى قُـرْبِ عَهْـدِهِ بالصِّـقَالِ

(١) الـديوان ص ١٢٧. ولمزيـد مـن النمـاذج في وصـف القائـد يمكـن الرجـوع إلى الـديوان ص ١٣٧/١٣٩/١٥٠/١٥٤/١٥٨/١٧٧/١٨٩/٢٠٧/٢١٥/٢٢٤/٢٤١/٢٤٦.

المبحث الثاني

وصف الجنود

الجنود يمثلون عصب المعارك وعمودها الفقري؛ ولذا نال وصف الجنود اهتمام الشاعر، وقد جاء وصفه للجنود ملازمًا لوصف المعارك والقادة ؛ فقد كانوا شديدي التأثر بقادتهم، ومن هنا جاء تقديم وصف القائد على وصف الجند ، فالناس على دين ملوكهم؛ لذا فلا عجب أن يتصف الجند بالكثير من صفات قائدهم، وقد حرص الشاعر علي بيان تنشئتهم في أجواء المعارك ، وأنهم نُذروا منذ المهد فرسانا فيقول(١):

بـني الحـربِ مـازالوا يَشِـبُونَ حولهـا علـى أنهـا قبـل الفِطَـامِ نَـذُورُ

وعلى المتلقي أن يتخيل مهارة وقوة من أعد بهذه الطريقة لا شك أنه سيكون أكثر حنكة ، وأصلب عودا، ومن هنا جاء وصفه لهم في قوله(٢):

في فتيـةٍ يُنْهِبُـونَ الليـل عَـزْمَتَهُمْ فلـيس يَطْـرُقُهُمْ إلا علـى حَـذرِ
لا يَرْحَضُـونَ دُجـاه كلمـا اعتكـرتْ إلا بمـالٍ ضـياعٍ أو دمٍ هَـدَرِ
باتـتْ تَخَطَّـي النجـومَ الزُهْـرِ صـاعدةً كأنمـا تَفْتَلِيهَـا عـن بـني زُهَـرِ
القـائلين اقْـدُمِي والأرضُ قـدْ رَجَفَـتْ إلا رُبى مِـنْ بقـايا البـيضِ والسُـمَرِ

فالشاعر يرسم صورة لفتيان (بني زهر) الذين شغلوا بحماية الأوطان والذود عنها فلا يهجعون الليل إلا قليلا (فليس يطرقهم إلا على حذر) فهم يأخذون حذرهم كما علمهم دينهم، ولأنهم نشأوا في أجواء المعارك، فعلموا أنها لا تؤتمن، وخبروا مكر الأعداء؛ لذا فهم يغسلون ظلمة الليل بالاستعداد وبذل المال، أو التضحية

---

(١) الديوان ص٨٨.

(٢) السابق ص٧٧. لا يرحضون: لا يغسلون.

لا يرحضــون دجــاه كلمــا اعتكــرت إلا بمـــال ضـــياع أو دم هـــدر

إن هذا البذل والسهر والتضحية ومعرفة خبايا المعارك منذ الصغر جعلهم في أعلى مراتب الفروسية ، بل صاروا نجوما يقتدي بها كل فارس إنهم تخطوا النجوم علوا وكأن هذه المنزلة التي فاقت النجوم منتقاة، ولا تتوفر شروطها إلا في بني زهر:

باتــت تخطــي النجــوم الزهــر صــاعدة كأنمـــا تفتليهـــا عـــن بـــني زهـــر

لقد بلغ من قوة وشجاعة الجند أنهم يطلبون المعارك ، ويزلزلون الأرض ويعلون بسيوفهم ورماحهم هامات الأعداء:

القــائلين اقــدمي والأرض قــد رجفــت إلا ربى مـــن بقـــايا البـــيض والســـمر

ويصف (التطليلي) الجند وقد التفوا حول القائد وهو يسير مختالًا بقوتهم وشجاعتهم، وكيف أنهم أكثروا من تقطيع رقاب الأعداء حتى أصبحت صفوفا متراصة، إن هذا الجيش (العرمرم) كلما حلَّ بأرض أصابتها رجفة شديدة كأنما قد زلزلت جوانبها، لقد بلغ من شدة بأس الجند (الجيش العرمرم) أن الجبال تسجد له ولو أمرها بالزوال لزالت، ويتضح ذلك من قوله[١]:

واهـــبُ العســـكرِ العرمـــرمِ يلتـــفُ علـــى ذي الرياســـة المختـــالِ

طبَّـــق الأرض كلمـــا حـــلّ فيهـــا صـــار فيهـــا جَنْـــبٌ مـــن الزلـــزال

تســـجدُ الهضـــبُ نحـــوه ولـــو استعْـــ ـــصـــتْ عليـــه لأذنـــتْ بالـــزوالِ

وفي لوحة أخري يصف الشاعر الجند بالإقدام والشجاعة، وبأنهم الغالبون، والسباقون ، إنهم لا يرهبون الموت بل المنايا تتحاشاهم وترهب جانبهم، لقد بلغ من قوتهم أن الدهر أصبح لهم ناصرا يعز من نصروا، ويذل من خذلوا، لقد بلغوا من المجد

(١) الديوان ص ١٢٩ .

شأوا فاق الأوائل منعة، وعزة، وقوة، وكرما، وفوق ذلك من شيمهم حفظ حقوق الجيران فيقول(١):

الغـــالِبُونَ علـــى مـــا فـــاتَ غـــيرَهُمُ ... لا يُســـبقُون إلى شـــيء وإن وقَفُـــوا

والمُـــؤْثِرُون علـــى مـــا حـــاقَ جـــارَهُمُ ... وإن تكـــاثرت الشَـــنآنُ والشَّـــنَفُ

قـــومٌ تُحـــامى المنـــايا الحمـــرُ دونَهُـــمُ ... إذا احْتَبَـــوْا وتَحَامَـــاهُمْ إذا زَحَفُـــوا

لا يطمـعُ الـدهرُ في خـذلان مَـنْ نصـروا ... ولا يجـوزُ لـــه إنكـــارُ مـــا عَرفُـــوا

فالشاعر يرسم لنا صورة للجند الذين يحققون ما عجز عن تحقيقه الأوائل، ولقد وفق الشاعر في اختيار لفظ (الغالبون) لما تحمله كلمة الغلبة من القوة ، وفي اللفظة تأثر بالثقافة الاسلامية ﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣**﴾(٢)، كما أن الجند لا يُسبقون إلى شيء، والعجب أنهم (لا يُسبقون وإن وقفوا) وفي ذلك دلالة على أن وقفتهم عن سبق كبير ، لا يستطيع أحد الوصول إليه ، كما لا يجرؤ أحد تعديه.

وفي البيت الثاني يقدم الشاعر صورة أخري من صور بطولة الجند، فهي ليست فقط في ساحات الحرب، بل إن لهم شيما منها معرفة حق الجار فهم يؤثرون الجار على أنفسهم ولو حملت قلوب الجيران ضغينة؛ لأنهم لا يتعاملون بسوء الظن بل لهم أحلام، وأكرم ما يكون المرء أن يعفو عمن أساء إليه، فإن أعقب العفو عطاء صار إحسانًا .

ثم تعاود الصورة تسليط الضوء على جانبين من جوانب القوة والفروسية فيحدثنا عن إقدام الجند فيصور الموت بإنسان له قلب يخاف فهو يرهب هؤلاء الجند مع أنه أخاف الجبابرة، وما ذاك إلا لشدة بأسهم ، ولتقوية الصورة في ذهن المتلقي أتي بقوله:

---

(١) الديوان ص ١١١.

(٢) سورة الصافات، الآية١٧٣.

(المنايا الحمر)؛ ليدل على أن الموت ليس موتا طبيعيا بل إنه مقرون بدماء سالت في ساحات المعارك، وأعجب من ذلك أنه جعل الموت يهابهم في كل الأحوال إذا مكثوا في بيوتهم، أو نزلوا ساحات القتال، والشاعر يوحي بذلك إلى معنى خفي مفاده أنهم آمنون في بيوتهم لا يقدر عدو على مهاجمتهم؛ لذا لا يخشون الموت، أما في ساحات المعارك فهو مرهون بأمرهم موكَّلِين به كما جاء في قوله في قصيدة أخرى يصف القائد وجنده بأنهم تقمصوا شخصية (عزرائيل) وأصبح أمر الموت موكولا بهم فقال:

كفيـــل بأرواح العبـــاد موكـــل علـــيم بأســـرار الحمـــام خبـــير

وكما اجتمع لهؤلاء الجند صفتا القوة والكرم، وقد حرص الشاعر على إضافة فضيلة أخري تحتاجها المعارك لشحذ الهمم ،هي الفصاحة ،وقد عبر عن ذلك بقوله:

هضـب الإطالـة فرسـان المقالـة جـن البســـالة لا عـــزل ولا كشـــف

ولا يخفي ما في البيت من حسن تقسيم (هضب الإطالة / فرسان المقالة/ جن البسالة) وفي البيت الثالث يتعجب الشاعر من وقوف الدهر في صفهم، وكأنه يأتمر بأمرهم ،فينصر من نصروا، ويخذل من خذلوا:

ولا يطمـع الـدهر في خـذلان مـن نصـروا ولا يجـوز لـــه إنكـــار مـــا عرفـــوا

فما أعجب من جيش يأتمر الدهر بأمره ، والموت يخشاه ، ولعل قوله (لا يطمع الدهر ـ ولا يجوز له) فيه دلالات على أن الدهر أيدهم ووقف إلى جوارهم؛ لأنهم نصروا الحق ، ودافعوا من أجل العقيدة ؛ لأنه لا يمكن الفصل بين اختيار الشاعر للفظ ومناسبة القصيدة، فهذه القصيدة قيلت في معركة من المعارك التي خاضها المرابطون ضد المسيحين مما يؤكد أنه اراد بنصر الدهر هنا نصر الله وتأييده لجند الله، وإن كنت لا استحسن قوله في حق الدهر (لا يجوز له، أو لا يطمع الدهر) إلا إذا كان يقصد بالدهر

النصر ، ويكون المعنى لا يطمع عدو في النصر عليه، ولا يجوز أن يكون النصر حليف غيرهم، لأنهم أخذوا بكل أسبابه من تنشئة في ميادين الحروب، إلى غير ذلك مما سبق ذكره .

ويرسم التطيلي لوحة تظهر بسالة الجند فيقول(١):

والعـــوالي شـــواجرٌ تَصِـــفُ المـــو تَ بأيمـــــان فتيـــــةٍ كـــــالعوالي
أقبلوهـــا وجأجـــأ الخيـــل حـــتى شَـــــرِقْت بالنجيـــــع أو بالـــــرُّؤال
أنْجُـمٌ يهتـدي بهـا المـوتُ أو تَهـدي علـــى بُعْـــدِ شـــأوِهَا بالضـــلال

فبعد أن وصف أجواء المعركة ، وصهيل الخيل، وصيحات الجند، بدأ في وصف شجاعة الجند وثبات جأشهم، وكيف أنهم يثبتون في المعارك ثبات الجبال العوالي لا يرهبهم تلاطم السيوف والرماح حتى غدو أنجما تهدي ولكن أنظر إلى نوع الهداية إنها إلى الموت ، ولو أردت تحليل الصورة لهالك قدرة ومهارة الشاعر في توظيف الألفاظ لتعْطي دلالات وايحاءات عجيبة، فالهداية في جوهرها طريق إلى النجاة فمن يهتدي بالنجم في الصحراء يأمل الوصول، ومن يهتدي بالحق يأمل النجاة من النيران، فالهداية مرتبطة بالنجاة، ولكنها هنا مقرونة بالهلاك؛ لأن النجم هنا يمثل السيف فهو نجم في علو المكانة الناتجة عن قوته وشدة بأسه ، فمن كُتب عليه الموت حاول الاقتراب من هذا الفارس؛ ولذ وصفها الشاعر بأنها تهدي إلى الضلال أو الهلاك (أو تهدي على بعد شأوها بالضلال) . وقد استخدم الشاعر كثيرا من عناصر التصوير ليجسد للمتلقي فروسية الجندي (فالعوالي شواجر) أي الرماح والسيوف تتقاطع و في ذلك صوت وحركة وضوء ، وفي (نجوم) ضوء كذلك، أما قوله (بأيمان فتية) دليل على أن الجنود هم من قاموا

(١) الديوان ص ١٢٨ .

بتصفيف القتلى (تصف الموت بأيمان فتية كالعوالي) وفي قوله تصف الموت بيد الجنود دليل على أن الموت مرهون بأيديهم فهم من المهارة بمكان أن أيديهم كأنها سهام موت لا يهرب أو يفلت من قصدته كما لا مهرب من الموت.

ويصف قوة الجند أثناء فتحهم (لأقليش) الذين أنزلوا القتل في جنود الروم وقتلوا قائدهم وتركوهم بين الجبال والوهاد فيقول(١):

وصَبَّحْتَ أقليشَ في جحفلٍ أغصّ الوهاد وأدَّ الرِّعانا
بكل كمي يروع الأسودَ خماصا ويرعي عليها بطاتا

وفي صورة أخري يصف الجند بأنهم فرسان سادة من أشرف العرب نسبا فيقول(٢):

من التغلبيين الأولى وسعوا العُلا إذا بَعِلَتْ قيسٌ بها وتميمُ
بنو الحرب أو آباؤها لم تزلْ لهم عليها ومنهمْ حرمةٌ وحريمُ
بهاليلُ غُلبٌ لم تُسلَّ سيوفُهُم فَتُغمَدَ إلا والزمانُ لحيمُ

فالشاعر يصف (أبا القاسم بن حمدين وجنده) في قصيدة من الطويل بأنهم من ذروة العرب شرفا ونسبا، عرفوا منذ القدم بالبسالة والشجاعة والإقدام، فهذه صفات توارثها الأبناء عن الأجداد فهم صناديد العرب وسادتها (بهاليل). ومن وصف الجنود في شعر الأعمى التطيلي ما جاء في قوله(٣):

(١) الديوان ص ٢٠٩، الجحفل: الجيش الكثير ويشترط أن يكون فيه الخيل. الوهاد : الأرض المنخفضة. الرعانا: الجبال.

(٢) الديوان ص١٨١ .

(٣) الديوان ص ٢١٣ .

القـــادرين علـــى الوفـــاء ضـــمانَهُمْ حـــينَ الليـــالي لا تَفِـــي بضـــمَانِ
ومُكللِـــينَ النـــارَ هامـــاتِ الـــربى في حيـــثُ مـــا شـــبتْ وفي الغِيطـــان
قـــومٌ إذا عرضُـــوا لحمـــلِ أمانـــةٍ أيقنـــتَ أن الفضـــلَ للإنســـانِ

وقد جاء وصف الجند هنا عقب وصفه للقائد (ابن زهر) في قوله:

وفـــتى إياد شـــيبها وشـــبابها في كـــل حادثـــة وكـــل مكـــان

والشاعر اهتم في هذه الصورة بوصف الجند بالوفاء بالعهود، ويسهل لهم تحقيق الوفاء قدرتهم مهما حاولت الليالي أن تحيل بينهم وبين الوفاء (حين الليالي لا تفي بضمان)، وهذا أشد أنواع الوفاء ؛ لذا فهم القادرون علي تجسيد صفة الأمانة لقد كانوا لونا آخر من البشر فكلهم مثال للأمانة ، فإذا كان الانسان قد حملها، ولم يعرف قدرها فظلم نفسه كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾[١] فإن هؤلاء القوم عرفوا لها حقها فوفوا (قوم إذا عرضوا لحمل أمانة.. أيقنت أن الفضل للإنسان) لأنهم جميعا سادة ومن طبع السادة الوفاء بالعهود (وإذا فلان عدَّ سيد معشر.. زحفوا له منهم بألف فلان) فالملاحظ أن الشاعر اختار هنا صفة جديدة من صفات الفارس تكاد تكون مفردة في الديوان وهي صفة الوفاء بالعهد فهذه الصفة تضاف الى الصفات التي حرص على تكرارها مثل: (الشجاعة والكرم).

وفي مشهد أخر يبرز الشاعر صورة للجند الذين يحاربون باسم الإسلام فيقول[٢]:

إذا رضـــوا فـــارْجُهم في كـــل نائبـــةٍ وكـــنْ علـــى حـــذرٍ مـــنهم إذا غضـــبوا

(١) سورة الأحزاب، الآية٧٢.

(٢) الديوان ص ٥٠.

إذا دعـوا قامـتْ الهيجـا علـى قَـدَمٍ كأنمـــا تنتمـــي فـــيهمْ وتنتســـبُ

هـم ثبَّتُـوا الـدين إذ ضـاقتْ مذاهبُـه بأنْفُـسٍ صـيغَ منهـا الـدينُ والحسـبُ

أيامَ جبريـــلُ داعـــيهِم إذا نزلـــوا وعزرائيـــلُ راعـــيهم إذا ركبـــوا

حـتى اسـتقر الهُـدى في عقـر دارهِـمُ وأيقـــنَ العُجـــمُ أن القـــادةَ العـــربُ

فهؤلاء الجند إذا رضوا زالت كل كربة أو كارثة ، والويل كل الويل لمن غضبوا عليه، ويصفهم بأنهم أهل المعارك فلهم تنسب ولهم تسمع وتطيع؛

إذا دعـوا قامـت الهيجـا علـى قـدم كأنمـــا تنتمـــي فـــيهم وتنتســـب

أما أذا دعوا إلى الحرب قامت الدنيا ولم تقعد، إنهم جند جاهدوا من أجل الدين ، ولذا إذا نزلوا بمكان عمروه ولم يصب بأذى أو تدمير، وتلك طبيعة الفاتحين، وقد أحسن الشاعر توظيف الموروث الديني حين ذكر (جبريل وعزرائيل) عليهما السلام فالأول (جبريل) ارتبط ذكره في يقين المسلم بالخير وارتبط الأخر (عزرائيل) في عقلية المسلم بأنه قابض الأرواح فمجرد سماع اسمه مخيف ومرعب وقد جاء اسم جبريل عليه السلام مرتبط بالبلاد التي ينزلونها فاتحين، أما اسم عزرائيل عليه السلام فقد ارتبط بركوبهم الخيل وذهابهم إلى المعارك فهو مصاحب لهم لكثرة القتل المنتظر، وقد استعان الشاعر بهذه الصورة الذهنية؛ ليرسم واقعًا، وليكون ذا أثر فعال في نفس المتلقي وفي ذلك تأثر بقوله تعالى: ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)**﴾[1]. وجاء البيت الأخير ليشير إلى انتصار المسلمين، وأن هذه الحروب كان دافعها الجهاد وردع الظلم فيقول:

حـتى اسـتقر الهُـدى في عقـر دارهـمُ وأيقـــن العُجْـــمُ أنَّ القـــادةَ العـــربُ

إن جهاد هذه الجيوش كان من أجل الله ؛ لذا فهم (جند الله) ويتضح ذلك من

(١) سورة الصافات، الآية٦٥.

داليته التي نظمها على الطويل وفيها يقول[١]:

ولا في جنـــود الله حـــين أتـــتكم لهـا مـن قـدير يـدفعُ الهـزلَ بالجـدِ

غـــداة رمـــاكمْ كـــل طـــودٍ بمثلـــه فمـــا بالكـــم كنـــتم أذلَ مـــن الوهَـــدِ

فالشاعر يصف الجند بأنهم جند الله، وأنهم أذاقوا الأعداء الذل (أذل من الوهن)، ثم يعود في نفس القصيدة فيصف الجند بالفتوة والجلد فيقول:

بكـــل فـــتى جلـــدٍ يخـــوضُ غمارهـــا علـــى كـــل نهَّـــاضٍ بأعبائهـــا جَلْـــدِ

هنـــاك عـــرفتم أيـــن أحمـــد مـــنكم وكـــان حـــريّا بالبِـــدَارِ إلى الحمـــد

ووصف الجند بالفتوة تكرر كثيرًا في وصف التطيلي للجند من ذلك على سبيل التمثيل قوله: (في فتية ينهبون الليل عزمتهم) [٢].

وقوله يمدح جهاد بني الحضرمي (من الطويل) [٣]:

بكـــل فـــتى كالســـيف إلا ارتياحـــه لطلعـــة شـــاك أو لنعمـــة شـــاكر

وفي القصيدة نفسها يحدثنا الشاعر عن الجنود وأصالتهم فهم سادة قحطان وكانت سليح قد غلبت على الشام فملكتها الروم علي العرب، إلى أن ورد الغساسنة، فاتفقت مع سليح على الإقامة في طاعة ملك الروم، على أن تدفع غسان إتاوة للروم، وقد رفضت الغساسنة دفع الإتاوة من بعد وطردوا سليحًا من الشام فيقول[٤]:

---

(١) الديوان ص ٦١ .

(٢) الديوان ص ٧٧ .

(٣) الديوان، ص ٨٠.

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة ، حنبوها يعني الخيل، جلق دمشق، وفي البيات يتحدث عن مأثر يمن ومواطن فخارها، يقصد ب(عك) هجرة قبائل اليمن غلى بلاد عك، ويقصد بالراعفات الشواجر : الرماح المختلفة المتداخلة، وبزيد زيد الخيل الطائي، وشد المزاكي، جري الخيل.، شد المغافر :ربط الخيل

بهاليـلُ مـن قحطـانَ سـاروا بـذكرهمْ إلى مثـلٍ في الجـود والبـأس سـائر
هـم حنبُوهـا بـين بُصـري وجِلَّـق ضـوامرَ زَجُّوهـا وغـير ضـوامرِ
ليـالي أعطوهـا سـليحَ إتاوةً جَـرَتْ مـثلاً أخـرى الـدهور الـدواهر
وهـم ذعـروا أفنـاء عـكَّ بوقعـة أدارتْ علـى همـدان إحـدى الـدوائر

ويواصل الشاعر ذكر الجنود ومفاخر آبائهم في الحجاز ونجد ، ويذكرهم بجدهم زيد الطائي يقصد زيد الخيل الطائي فيقول:

هـم زحمـوا أرض الحجـاز بزحمـة بـيض الظبـا والراعفـاتِ الشـواجر
وهـم مـلأوا نجـدا شَمَامـا ونجـدة ورقـةَ آدابٍ وطيـبَ عناصـرِ
لهـم أجـأٌ يحميـه زيـدٌ وحـاتمٌ بِشـدِّ المـذاكي أو بشـد المَعَـافِرِ

والمتأمل في اللوحة الكاملة التي وصف بها التطيلي الجنود ، يجد أن الشاعر ذكر في مطلع معظم أبيات اللوحة الضمير (هم) فالضمير هنا يعبر عن الإعجاب والتعظيم ، ثم انظر إلى كل فعل قرن بالضمير تقف علي شجاعة وجرأة الجنود وقد توارثوها (هم ذعرو) ،(هم زحموا)، (هم ملأوا)، (لهم أجأ) تجد أن كل فعل وظف لآداء وبيان ما للجند وآبائهم من مفاخر، ومن هنا وقع اختيار الشاعر على ألفاظ ذات دلالات تناسب الحدث (ذعروا، زاحموا، ملأوا) فكلها ألفاظ تجسد البطولة والإقدام، فهم أصابوا الأعداء بالذعر والرعب، وهذا مطلب من مطالب النصر، وهم زاحموا أرض الحجاز مما يدل على كثرتهم وإقدامهم، ويؤكد ذلك الفعل (ملأوا) مما يعني أن الجيش (عرمرم) كما وصفه بذلك في قصائد أخرى، وهؤلاء الجند لهم شيم مرتبطة بطيب العنصر تتمثل في آدابهم (ورقة آداب وطيب عناصر) وليس هذا بغريب على أحفاد أماجد شهروا بالقوة والجود ك (زيد الطائي ، وحاتم الطائي) فالأول عرف بالزود عن الخيل والديار، والآخر

عرف بالكرم، فلا عجب إذن أن يصف الجند في مطلع اللوحة بقوله:

بهاليل من قحطان ساروا بذكرهم إلى مثل في الجود والبأس سائر

وفي أغلب وصف الشاعر للجند تجده يحرص على وصفهم بالسادة ، والأسد، كما أنهم إلى جانب شجاعتهم كالمزن في الكرم فلهم حالة في السلم تناقض حالهم في الحرب، ومن ذلك قوله (من الطويل) (١):

بهاليلُ أبطالٌ جحاجحُ سادةٌ كأسد الشرى في الحرب كالمُزن في السلم

إذا ركبوا الجُردَ الجيادَ إلى الوغى رأيتَ الأسودَ الضاربات على العُصْمِ

كما أن للفارس سمات إسلامية وعربية يتحلى بها منها ، عقيدته التي ترى أنه ليس من الشجاعة أو المروءة قتل الأعزل، فإن جاء مسالما فله الأمان فلا يروع، وإن جاء محاربا وليس معه سلاح نمكنه من السلاح ليتمكن من مبارزة شريفة متكافئة فيقول(٢):

وحُدّ لذي الرمحِ أن لا يَرُوْعَ أخاه فقد جاء يبغي الأمَانا

وإلا فَسَلِّحْه رُمْحًا كرُمْحٍ ونبئهما أن يُجِيدا الطِعَانا

ما كانت هذه الأخلاق لتكون إلا لسمو الغاية لدى المقاتل المسلم، فالجند لا يدخلون المعارك إلا لدواع ودوافع دينية وطنية، وليس بقصد إراقة الدماء، أو انتهاك الأعراض والحقوق، فطلائع الجيش كما وصفهم يحملون لواء الفتح . وسماحة الدين، وينشدون الحق(٣):

(١) الديوان ص ١٩٥.

(٢) الديوان ص٢٠٧ .

(٣) الديوان ص ٢١٥.

طليعـــة جيشـــك الـــروح الأمـــين وظـــل لوائـــك الفـــتح المبـــين

وهـــزة رمحـــك الزفـــر المـــواتي ورونـــق ســـيفك الحـــق المبـــين

فالشاعر في وصفه للقائد أو الجند يحرص على جمع صفات معينة مثل الشجاعة والكرم ، والفصاحة، والتمتع بمكارم الأخلاق وهي صفات عرفها العربي منذ العصر الجاهلي أضاف إليها الإسلام قيما وأخلاقيات تسمو بالبشرية وتنزه ساحات القتال فلا تكون غابات بلا قيم .

الفصل الثاني

وصف أدوات القتال

في الفصل الأول تناول البحث شخصية القائد ثم الجند، والسمات التي اتصفا بها، ومهما عظمت تلك الصفات، فإن البطولة لا تكتمل إلا بعدة وعتاد واستعداد ، وهذا الاستعداد لا يكون تاما إلا بتوافر أدوات القتال و التي تعد مقومات الانتصار على الأعداء قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)** ﴾[١] فمهما بلغت شجاعة القائد أو الجنود لا يمكنهم تحقيق النصر بدون الأخذ بأسبابه، ومن هنا جاء اهتمام الفارس بأدواته الحربية، فالسلاح يمثل للفارس الزاد، فبه يدافع عن نفسه، وبه يعيش في مأمن من الأعداء، ومن هنا فخر الفرسان بخيلهم وسلاحهم ، "وعلت صيحات الجنود " السلاح السلاح"[٢] وليس الرجال الرجال، مما يعني أن العدة أهم من العدد؛ لأن العدد بلا سلاح ، أو استعداد كغثاء السيل لا قيمة له، وقديما قال عامر بن طفيل الغنوي[٣]:

يـــوم لا مـــال للمحـــارب في الحـــر ... ب ســـوى نصـــل أسمـــر عسّـــال
ولجـــام في رأس أجـــرد كـــالجز ... ع طـــوال وأبـــيض قسّـــال
ودلاصٍ كـــالنهى ذات فضـــول ... ذاك في حلبـــة الحـــوادث مـــالي

فأدوات القتال في نظر الفارس هي أغلى ما يملك ، وأثمن ما يورث، ولعل أصدق

(١) سورة الأنفال، الآية٦٠.

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، المجلد الأول، كتاب الحرب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م، ص ١٢٩.

(٣) ديوان عامر بن طفيل دار بيروت ، ١٣٨٣هـ ، ١٩٦٣م ، ص ١٠٢

وصف لذلك ما قاله عروة بن الورد[١]:

وذو أمـــل يرجـــو تراثـــي وإن مـــا يصـــير لـــه منـــه غـــدا لقليـــل
ومـــا لي مـــالٌ غـــير درعٍ ومغفـــر وأبـــيض مـــن مـــاء الحديـــد صـــقيل
وأسمـــر خطـــي القنـــاة مثقـــف وأجـــردُ عـــريان الســـراة طويـــل

ورغم كل ما للسلاح والخيل من قيمة لا غنى عنها يبقى للفارس ومهارته وقوته دوره ؛ لأنه الأصل ، فالعبرة إذا بهما معًا، ولا قيمة لسلاح مهما بلغت قوته بدون يد قوية مدربة تحمله على حد قول المتنبي[٢]:

إن الســـلاح جميـــع النـــاس تحملـــه ولـــيس كـــلُ ذوات المخلـــب الســـبُع

فلا قيمة لسيف في يد الجبان[٣]:

إن الســـيوف مـــع الـــذين قلـــوبهم كقلـــوبهن إذا التقـــى الجمعـــان
تلقـــى الحســـام علـــى جـــراءة حـــده مثـــل الجبـــان بكـــف كـــل جبـــان

(١) ديوان عروة بن الورد شرح ابن السكيت، حققه عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي، بدون تاريخ ، ص ٢٠٧

(٢) ديوان المتنبي ج ٢ /٢٤٣ .

(٣) السابق ج٤/١٨٤ .

المبحث الأول

الخيل

اهتم الشعر العربي منذ القدم بالحديث عن الخيل حتى غدت أشعارهم في الخيل أغنيات رائعة، فقد أعجب العربي بقوتها ، وجمالها ، ووفائها، وأيقن أنها صانعة النصر؛ ولذا تحدث عنها العربي من كل المحاور فذكر أصالتها (معم مخول)، وتناول أوصافها الجسمانية فلم يترك جزءًا إلا ووصفه يقول الجاحظ " لقد استأثرت الخيل بحب العرب منذ أقدم العهود لما تؤديه من خدمات يعجز عن أدائها سواها .... ففيها من خصال الشرف، والمنافع في الحرب والسلم ما ليس في غيرها من الحيوان"(١).

ويقول عنها أبو عبيدة: "لم تكن العرب تصون شيئا من أموالها ولا تكرمه صيانتها للخيل، وإكرامها لها؛ لما كان لهم فيها من العز، والجمال والمتعة، والقوة على أعدائهم حتى إن الرجل من العرب ليبيت طاويا، ويشبع فرسه، ويؤثره على نفسه وأهله وولده"(٢)، وقد أفاض العرب في الحديث عن حركاتها وسرعتها عند الكر والفر والصيد، وأطلقوا عليها أسماء صارت أعلاما للفرسان مثل (الأبجر) لعنترة (والمزنوق) لعمرو بن طفيل الغنوي، وبلغ من فرط عشقهم لها حد التباهي والاندماج والمعايشة مع الفرس، ومن أروع الشعراء في هذا الباب (وصف الخيل) (أبو داؤاد الإيادي، وابن طفيل الغنوي، وعنترة بن شداد، وامرؤ القيس، وغيرهم)، وقد لفت انتباه النقاد ما تميزت به الخيل منذ القدم؛ فهذا زكريا القزويني يذكر الخيل في قوله" وهى من أحسن المخلوقات

(١) الحيوان للجاحظ تحقيق محمد عبد السلام هارون مطبعة مصطفي البابي الحلبي، وأولاده ط ١ لسنة ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م، ج ٧/ ١٢٠ .

(٢) كتاب أسماء الخيل وفرسانها، لأبي عبد الله محمد الأعرابي، تحقيق ودراسة د محمد عبد القادر أحمد ، مكتبة النهضة المصرية طبعة الأولي ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م، ٥٨.

شكلا ، وأرشد الدواب عدوا وذكاءً، ولها خصال حميدة، وأخلاق مرضية، وصفاء لون، وحسن صورة ، وتناسب أعضاء، وحسن طاعة للفارس ..." (١).

وليس البشر فقط من أعجبوا بالخيل فقد بلغت من الفضل أن أقسم الحق جل وعلا بها فقال﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣)**﴾(٢)، وقد جعلها الله تعالى من أولويات الأخذ بالأسباب عند الاستعداد للمعارك فقال تعالى ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)**﴾(٣) وذكر فضلها الرسول- صلى الله عليه وسلم- حين قال:" وأردافها أدفاؤها، وأذنابها مذابها، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"(٤).

والممعن في شعر (الأعمى التطيلي) يجد أن الخيل قد استوقفته بجمالها وطباعها فحدثنا عنها حديث من رأى وعايش، وفي ذلك براعة تفوق الخيال، حين يصور مكفوف الخيل في صورة تأتي على جل صفاتها، وأشكالها وحركاتها (من مشطور الرجز) واصفا شكله، وقوة بنيانه، ثم صوته وجمال صهيله، بعدها يحدثنا الشاعر عن قوته، وسرعته في العدو، وسهولة جريه وعدم تعثره رغم سرعته، لخبرته في قطع المفاوز

(١) عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات، زكريا القزويني ، تحقيق فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م، ص ٤٠٠، وذكرها ابن قتيبة في الشعر والشعراء ج١/ص١٦١.

(٢) سورة العاديات الآية من ١-٣

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٦٠

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير ص ١٣٦.

فيقول(١):

يجتـــابُ كـــلَّ جـــوزِ هـــولٍ أهـــولِ
بمُشـــرِفِ الحـــارِكِ نهـــدِ الكفـــلِ
أقـــبَّ محبـــوكِ الســـراةِ هيكـــلِ
كـــلَّ معـــمٍ في الجيـــادِ مخـــول
أغـــرَّ مـــن عتاقهـــا مُحَجَـــلِ
ذي بشـــرٍ أملـــسَ كالســـجنجلِ
تـــزِلُ عنهـــا لحظـــاتُ المُقـــل
كأنمـــا صـــهيلُهُ في المحفـــل
غِنـــاءُ إســـحاقَ وضـــربُ زَلِـــزَلِ
تعـرفُ فيـه العنـفَ فـاسمعْ وخـل
يمـــرحُ مشـــكُولا كـــأن لم يُشـــكَلِ
يســـبقُ بـــين مُخْـــزِنٍ ومُســـهِلِ
عـــدو الظلـــيمِ في ظهـــو الأحْبُـــلِ
يُلاعـــبُ العنـــانَ عنـــد الوَهْـــلِ
بجيـــدِ حـــوراءِ العيـــونِ مُطْفِـــلِ

(١) الديوان ص١٧٧/١٧٨. الحارك: الظهر، نهد: مرتفع، أقب: ضامر، السراة: الظهر، إسحق بن ابراهيم الموصلي ، وزلزل : مغنيان،، الحزنُ: خلاف السهل وهو ما غلظ من الأرض ،الظليم : ذكر النعام، الأحبل : جمع حبلة وهو المستطيل من الرمل، الوجى: خدر ووجع يأخذ الإبل في أرساغها وأرجلها..

كالغُصـــنِ قـــد أينـــعَ مـــن تـــدلِّلِ
ويتقِـــــي الأرضَ بمثـــــلِ المعْـــــولِ
لا يشـــتكي الـــوجَى وإن لم يُنعـــلِ

فالشاعر يصف جمال الظهر والبطن (أقب محبوك السراة) كما يصف الغرة، والبشرة (أغر، أملس، كالسجنجل)، أما الصوت (الصهيل)في ساحات المعارك فله نغم وطرب يمتع الفارس، وكأنك تسمع غناء (إسحاق الموصلي) أما وقع الحافر على الأرض ونغمات طرقه للأرض فلا تقل شأنا عن مهارة (زلزل) في عزفه على أدوات الغناء، أما عن سرعة الخيل فهي تشبه (عدو الظليم)، أما خفة حركاته في كل اتجاه فكأنها (غصن أينع من تدلل)، كل هذه الصفات، ولم ينس الشاعر بيان حسب ونسب الخيل فقال (معم، مخول).

إنه فرس يخطف جماله أنظار من يراه لجمال جيده، وحور عينيه، فإن كان فرس عنترة قد عبر عن شكواه بعبرة(وشكا إلي بعبرة وتحمحم... لوكان لو علم الكلام مكلمي[١])، فإن فرس التطيلي صبور لا يشتكي الوجى ولو بلغ به الإجهاد مبلغا، أو أدميت قدمه (وإن لم ينعل)؛ لأنه يريد ألا يصيب فارسه بالإحباط ، بل هو يدفعه على تحقيق المجد ، والحق أن التطيلي قد رسم لوحة فنية للفرس من النادر أن يأتي بمثلها مبصر، فقد أجمل في لوحته جل ما ذكر في الشعر العربي في مئات اللوحات، وتلك مهارة لا تُنازع .

ولا عجب أن يبدع الأعمى التطيلي كل هذا الإبداع في وصف الخيل، فهي تمثل عنده عدة المجاهدين لدفع الظلم ، وتحقيق العدل، ورفع راية الإسلام، ومصدرا من

(١) ديوان عنترة ، ص٦٨.

مصادر إرهاب الأعداء في ساحات المعارك ؛ ولذا وصفها في ساحات المعارك بأنها شعث النواصي، وأن الغبار المتطاير من أقدامها قد كساها فابيض شعرها ، وجاءت دماء الأعداء فصبغت هذا البياض بالحمرة، مما يعني أن الخيل كانت ملاصقة لأجسام الأعداء المبارزين، وهذا دليل على جرأة الفارس والفرس حيث لم ترهبه الدماء فقال(١):

والخيل شُعْثُ النواصي فوقها بُهَمُ خُمْسُ العزائمِ والأخلاق والمُرر
شابت من النقع فارتاب الشباب فغُيِّرتْ من دم الأبطال بالشُقر

فاستخدام الشاعر للخيل يعد رمزا من رموز القوة، بحيث يكون هذا الرمز " أداة لنقل المشاعر المصاحبة للموقف، وتحديد أبعاده النفسية"(٢).

والخيل معقود بنواصيها الخير، فهي تمثل معادلا موضوعيا للانتصار، فإذا أخذت الخيل أماكنها في ساحات المعارك، انتصر الخير فتجد الظالمين ما بين مدرج في دمائه، أو كليم مصاب:

إذا الخيل غاصت في النجيع وألجمت بسمر العوالي وهي تطغى على اللجم
فلم تر إلا عاثرا بدمائه يحاذر كلما أو يدافع عن كلم

والحق أن صورة الخيل مبثوثة في ديوان (الأعمى التطيلي) فقد مزجها في معظم شعره عند وصف الممدوح بالشجاعة والإقدام، أو وصف المعارك الكثيرة التي شغلت دولة المرابطين ضد الدويلات المسيحية، فاقترن وصف الخيل بذكر شجاعة الممدوح، وإذا ربطنا ذلك بالعصر، والأحداث علمنا أن ذكره للحرب والمعارك من باب الجهاد الذي

(١) الديوان ص ٧٧ .

(٢) الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية ، الطبعة الثالثة ، د /عز الدين اسماعيل ، دار الفكر العربي ١٩٧٨م، ص ٢٠٠

أُقعد عنه مضطرًا لإعاقته (بالعمى)، ولا يمكن لبحث حُددت له صفحات معينة أن يذكر كل الشواهد، ولكنه يختار منها ثم يُحيل القارئ الكريم إلى النماذج. ومن تلك النماذج وصفه للخيل بعراقة الأصل حيث نشأت في البصرة ودمشق، فيقول(١):

هم حنبُوها بين بصرى وجِلَّقٍ ضوامرَ زجُّوها وغير ضوامر

ويذكر نوعها وسرعتها، فيقول(٢):

وجرد عناجيج ذكور يكرها على الموت مُرد معلمون ذكور

فالخيل قوية وسريعة ومن أجود أنواع الخيول، فهي (عنجوج)، أي سريعة العدو وأصيلة النوع.

ومن قوله يدلل على سرعة الفرس وخفة حركاته يمنة ويسرة، قوله(٣):

والخيل تمزعُ أو تلتفُّ كالحةً مثل الغصونِ تلاقى ثم تنعطفُ

ويقول مبينًا علاقة الحب التي تجمع بين الفرس والفارس، مع بيان قوة الفرس وضخامته(٤):

والسابح النهد مختالًا براكبه كأنه برداء الصبح ملتحفُ

ويرسم الأعمى التطيلي لوحة فنية بديعة للخيل في ساحات المعارك، فيصف الخيل وقيادة الفارس لها، وقد غدت الخيل ضامرات (كالقسي أو كالنبال) الأمر الذي أكسبها خفة وسرعة، وهذه الخيل عودت على الدماء من كثرة قربها من العدو، والتصاق دماء

(١) الديوان، ص٨٠.

(٢) الديوان، ص٨٩.

(٣) لديوان، ص١١٠.

(٤) السابق، نفس الصفحة.

الأعداء بجسمها، فقد أصبحت تعي كل شيء في المعارك حتى دعوة الداعي إلى النزال، فما أن تسمع من ينادي للنزال إلا وتسرع في التلبية، وكأنها هي المطلوبة، فتشق الصفوف، وتحدث فوضى في ساحات المعارك، فيقول(١):

أنـــت قُـــدْتَ الجيـــادَ مثـــل بنـــاتِ العُصـــم أو مثـــل أُمهـــات الـــرِّئال
ضـــــمرا كالقســـــيّ، مطَّـــــرداتٍ كالقنـــــا، مستشـــــقة كالنبـــــالِ
مـــن منـــايا الأوابـــد المســـتفزَّا تِ وأقـــوات الضـــيَّع الأغفـــالِ
ترتمـــي بالنـــزال في حوْمـــة المـــو تِ إذا مـــادعوا النـــزالِ نـــزالِ

ويصف الخيل ونزولها من أعالي الجبال إلى ساحات المعارك في سرعة رهيبة، وما تحدثه سرعتها، وخفتها من رعب وفوضى، فيشبهها بالقطا المنجفل من شدة سرعتها، فيقول(٢):

والخيـــل تأتي كـــل شـــيء مـــن عـــل
فوضـــى كأمثـــال القطـــا المنجفـــلِ

ويقول في موضع آخرفي هذا المعنى(٣):

والخيـــل فوضـــى تبـــاري في أعنتهـــا تعـــوم في الـــدم أو تعلـــو علـــى القلـــل

ويذكر التطيلي الخيل وسرعتها، وإسراجها، فيقول(٤):

تعـــدو بســـرجي إليـــه كـــل ســـابحة وكـــأن غرتهـــا مرتقـــى زحـــلِ

(١) السابق، ص١٢٨.
(٢) السابق، ص١٧٢.
(٣) الديوان، ص١٦٠.
(٤) الديوان، ص١٦٠ .

ويواصل الشاعر في قصيدة أخرى (على بحر الوافر) فيصف جانبا من جوانب ما توصف به الخيل من قوة وضخامة بنيان، وسرعة عدو مقرنا ذلك بالفارس ليكتمل العنصرين الفارس والفرس، فيقول(١):

جلبت الخيل مشرفة الهوادي تعز على قبادك أو تهون
كآرام الصريمة أو مهاها وليس سوى الرماح لها قرون
سوابح من غمارٍ في حديد فما تدري أخيلٌ أم سفينُ
يُلَقّيها الطعانُ ولا يُبالي مُشَيحٌ ما يُبِل له طعين
يُجَللها ثيابَ مُكايديْه إذا انتفضت من الورق الغُصُون

وهكذا استطاع الأعمى التطيلي ذكر جلَّ ما يمكن أن توصف به الخيل، ووظف ذلك في بيان براعة ومهارة ، وشجاعة القائد، أو الجنود ، أو وصف المعارك، فما الفارس وفرسه إلا وجهان لعملة واحدة(٢).

(١) الديوان، ص٢١٥.الهوادي: الأعناق، الصريمة: قطعة ضخمة من الرمال أو اسم مكان، مشيح: جاد وحذر، لا يبل: لا يشفي.

(٢) ولمزيد من النماذج التي ورد ذكر الخيل فيها راجع الديوان ص٦١/٧٧/٧٨/١١٠/١١/ ١١٨/١٢٨/١٣٩/١٤٤/١٦٠/١٧٢/١٧٧/١٩٤/ ....الخ

المبحث الثاني

وصف السلاح

من أدوات الحرب: السلاح وهو لا يخرج في عرف العرب القدماء عن(السيف، الرمح، القوس ، السهم) وهذه أسلحة هجومية، وهناك أسلحة دفاعية مثل (الدرع، الترس ، المغفر، البيضة) ووضع السلاح في يد الفارس له رموز ومعاني، فرفع السلاح فوق الرؤوس يدل على العزة والشموخ، وتحطيمه يدل على المذلة والضعة، وتسليمه يعني الإذعان والخضوع، وقد لخص عامر بين طفيل قيمة السلاح للفرس في المعارك بقوله[١]:

إنـــني والـــذي يحـــج لـــه النـــا ... س قليـــــل في عـــــامرٍ أمثـــــالي

يـــوم لا مـــال للمحـــارب في الحـــر ... ب ســـوى نصـــلٌ أسمـــرٌ عسَّـــالِ

ولجـــام في رأســـي أجـــرد وأجـــذ ... ع طـــــوال وأبـــــيض قصَّـــــال

ودلاصٍ كـــــالنهى ذات فضـــــولٍ ... وذاك في حلبـــة الحـــوادث مـــالي

ويمثل السلاح في خيمة العربي ضرورة من ضرورات الحياة، فالسلاح عماد حياته، والمحور الذي تدور حوله كل حياته، فهو بين مغير، أو مغار عليه.

وقد أضفى العربي على سلاحه صفة الإنسان، فخاطبه وتحرى سيرته ومنشئه، فيقال: سيف هندي، ومهند، وهنداوي للذي صنع في الهند، ومشرقي نسبة إلى مشارف قرية معروفة بجلب السيوف، وقيل سيف سريجي نسبة إلى سُريج، وقيل هو الكثير ماؤه

(١) ديوان عامر بن طفيل ص ١٠٢، الجزع: ساق النخلة شبه به الفرس في الضمور، قصال: قطاع، الدلاص: الدرع الملساء اللينة، النهى: الغدير، شبه بريق السيف ببريق الغدير في اللمعان، الحلبة: الدافعة من الخيل في الرهان.

ورونقه، وسيف يماني وبصري نسبة إلى اليمن والبصرة(١).

والناظر في شعر الأعمى التطيلي يجد أن الشاعر قد أكثر من الوقوف أمام السيف والرمح حيث اتخذهما مادة للعديد من الصور البطولية للممدوح، وتفسير شخصية الممدوح وشجاعته فأحيانًا يجعل هزة رمح الممدوح الظفر المواتي، ورونق سيفه الحق المبين، فيقول(٢):

وهـــزة رُمْحـــك الظفـــر المـــواتي ورونـــق ســـيفك الحـــقُ المبـــينُ

فالشاعر يتعامل مع سلاح الفارس بوصفه سيف العدل الذي يرفع الظلم، ويحق الحق، ولذا لا عجب إذا ما جعل من السيف خطيبا يقف بين القوم يشرح لهم القضية، وهذا مناسب جدا لمعارك المرابطين مع النصارى في أشبيلية وطليطلة، فيقول(٣):

ولا خطيـب لـدى الأقـوام ينشـدهم شـــرح القضـــية إلا الصـــارم الـــذكر

ولعل هذا المعنى الذي يقف فيه السيف خطيبًا، وحدًا فاصلًا في حسم القضايا يذكرنا بقول أبي تمام في فتح عمورية(٤):

السـيف أصـدق أنبـاء مـن الكتـب في حـــدّه الحـــد بـــين الجـــد واللعـــب

وفي صورة أخرى نجد الشاعر يركز على رسم السيف، ونعته بأنه قاطع كالمنجل

(١) لمزيد من التفصيل يمكن مراجعة الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور، الكتاب العربي، ١٩٥٦، ٢/ ١٨٩.والمخصص لابن سيده، بولاق١٣١٦هـ، ٦/ ٣٣، والمفضليات للمفضل الضبي٢/٥٩.

(٢) الديوان، ص٢١٥.

(٣) الديوان، ص٩٣.

(٤) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ،حققه محمد عبده عزام ، الطبعة الرابعة دار المعارف، ص ٤٠.

تحش به المنية كل قرم نجيب، فيقول[١]:

وكـــل مجـــرب ذرب تحلـــى بوســـم لا يضـــاف إلى ضـــريبِ
تحُـــش بـــه المنيـــة كـــل قـــرم نجيـــب فـــوق منجـــرد نجيـــب

والرمح في وصف التطيلي مادة خصبة يرسم من خلالها الشاعر العديد من الصور، فهذا رمح تعلم من صروف الدهر، وكثرة خوضه للمعارك كيف يفرق جموع الجيوش[٢]:

وكـــل أصـــمَّ أخـــرس علمتـــه صـــروف الـــدهر تشـــتيت الشـــعوب

فالشاعر يختار مقومات صوره من مخزون تراثه الأدبي، وموروثه الثقافي، أو مما شاع في عصره، فوصف الأعمى التطيلي للسيف أو الرمح أو غير ذلك من أدوات السلاح (المغفر والبيضة) جاء حاملا معه العديد من المعاني التي حرص الشاعر على تكرارها في كثير من المواقف، حيث إن إكثاره من وصف آلات الحرب ، وتعدد فضائل السيف، وفوائده هو تعداد لمناقب الممدوح والذي غالبا ما يكون قائد المعارك خاصة في ظل حكم آل تاشفين حيث قامت هذه الدولة على عقيدة الجهاد والذي كان عاملا أساسيا في بقائها فترة زمنية تصل لأكثر من نصف قرن ، ومن أجمل ما جاء في وصف السيف ما جاء في مدح القائد علي بن تاشفين حين أضفي على الممدوح صفات سيفه فقال[٣]:

حســـامًا مـــا انتضـــاه الـــدهر إلا لـــيعلم مـــن يفـــي ممـــن يخـــون

(١) الديوان، ص٥٣.
(٢) الديوان، ص٥٣.
(٣) الديوان ص ٢٢٢.

صـــقيلَ المـــتن رونقـــه الأمـــاني وماضـــي الحـــد جـــوهره المنـــون
ومضـــربه جهينـــةَ كـــلَّ مجـــدٍ وســـله فعنـــده الخـــبر اليقـــين
إذا حـــدثتّ في الهيجـــاء عنـــه فـــإن حديثـــه فيهـــا شـــجون

فالشاعر لم يجد أفضل من صفات السيف ينعت بها المدوح، فوصفه بأنه كالسيف (صقيل المتن، ماضي الحد)؛ لذا صار نموذجا تضرب به الأمثال في حسم المواقف، فحسمه لها كحسم السيف للمعارك، أو كحسم جهينة للأخبار، فإذا كانت جهينة عندها الخبر الذي لا شك فيه ، فحسم السيف للمعارك لا مجال فيه للشك، أو الريب، كما أن له قصصا وأحاديث ذات شجون يتحدث بها الركبان ، فحديث الناس عنه متشعب ، كما أن حسمه للمواقف والمعارك متعدد ومتنوع.

ولما كان للسيف دوره الجوهري في إقامة الحق، وإبطال الباطل، وقيام دول، وإبادة أخرى، فلا عجب أن تجد التطيلي يصور السيف في صورة بها مفارقة تصورية، فالسيف إن أزال دولا ، إلا أنه في الوقت ذاته يقيم دولا أخرى، فهى صور تجسد الدور المزدوج للسيف فهو هادم، وبان في أنٍ واحد ويختصر الشاعر كل هذه المعاني في أوجز عبارة حين يقول: (باني المباني، ومزيل الدول) (١).

ويرسم الشاعر المكفوف صورة لوحية زيتية بالكلمات مستخدما الألوان التصويرية فيقول(٢):

الصـارم العصـب يقضـي المسـتميت بـه بـــرقٌ ولكنـــه للهـــامِ مختطـــفُ
يُزهـــى بـــه الـــرمح مـــن عُجـــب ومـــن أمـــا درى أنـــه ذو ملـــة طـــرف

(١) الديوان ص ١٧١
(٢) الديوان ص ١١٠.

يهتزُ كالغصنِ لا من لين منعطفٍ تخاله أريحيّا وهو مُلتهفُ

يشفي من الدنف المُضني وتحسبُه مُضْنيً تحامل حتى شفه الدنف

فقد وظف الشاعر الضوء والحركة في تجسيد صورته، حين وصف السيف بصفتين الأولى أنه صارم حازم قاطع للرؤوس، وفي ذلك صورة حركية ، والثانية تحمل معها الضوء والحركة معا حين يصفه بالبرق في سرعته وحركته ولمعانه. وتأمل معي وصفه للسيف بإنسان وكِلَّ إليه قبض الأرواح، فالسيف يقبض رقاب الأبطال (للهام مختطف).

و لما كان السيف هو المعادل للقوة، والحق طلب الشاعر من (أزهر) قائد الجند أن يجرد سيفه ؛ ليصول به ويجول فيقول(١):

وجرد السيف مطرورا تصول به يمين عزم كحد السيف مطرور

فالسلاح بكل أصنافه، وأنواعه يحمل في شعر التطيلي العديد من المعاني، فالسيف كالشجرة التي تتفرع منها جملة من الفروع، والأغصان تتمثل في (الرمح ، القوس، المغفر، البيضة) وهذه الفروع ليست كلها على درجة واحدة، فالأصل فيها والأقوى السيف، أما الرمح فيمثل خطا موازيا للقوة الباطشة ؛ ولذا غالبا ما يوصف بالمتانة والصلابة ، وأحيانا يركز على لونه فيشبهه بسمرة الشفتين ، وأحيانا يشبه الرماح بالنجوم في السماء، فكما نتير النجوم السماء ، تنير الرماح سماء المعارك الملبدة بالغبار. فمن الوصف بالصلابة قوله(٢):

أزرق ورَّادٍ لكل أكحل

ألعس لم يُرشف ولم يقبل

(١) الديوان ص٨٤ .

(٢) الديوان ص ١٧٢.

يخـــترع القتـــل لكـــل مقَتـــل

أما عن تشبيهه الرمح بالنجوم فقد جاء في مثل قوله(١):

ورب ليـــلٍ اخترقـــت ضـــحى والهصـــرُ منـــتظمٌ والهـــامُ منتشـــرُ
ولا نجـــوم ســـوى الأرمـــاح تشـــبهه ولـيس فجـر سـوى التحجيـلُ ينفجـرُ

ويصور (الأعمى التطيلي) السيف بالنار، وبالدموع في الأجفان فيقول(٢):

نار تسـوق العـدا مـن حيثمـا حُشـروا إلى الثـري، وهـو مـأواهم إذا قتلـوا
هنديـــة لم يـــزل بالهنـــد مغـــترب يـدعو بهـا كلمـا شـبت ويبتهـلُ
مـن نار كسـرى وكانـت قبلـه سمـة للـبرق يسـمى بهـا الصمصـامة النمـل
ربـداء تضـحك في الهيجـاء عـن لُمـعٍ كمـا التقـى الـدمع والأجفـان والكحـل

وتأمل كيفية توظيف الشاعر للغة ، وحسن اختياره للألفاظ في رسم صورة للسيف، فالشاعر يعقد مقارنة طريفة بين النار والسيف مستخدما كل الوسائل التي تجسم الصورة من تشبيه واستعارة، حيث خلع صفات النار على السيف، فأكسب صورة السيف حيوية ، فالألفاظ المستخدمة في مثل قوله (تسوق، حشروا، مأواهم) ألفاظ تتناسب مع النار، ثم جعل النار منسوبة إلى كسرى، مما يجعلها نارا مقدسة ، فهي بالنسبة للفرس مقدسة، والفُرس أنفسهم الذين عبدوا النار كانوا من أشهر صناع السيوف، كما أن الألفاظ السابقة ألفاظ لها دلالات ومعان في قلب وذهن كل مسلم وليس أدل على توظيفها إسلاميا من ذكره (القبر) في الشطر الثاني من البيت الأول

(١) الديوان ص٩٢. الهصر: أن تأخذ برأس شيء فتكسره دون أن يقع والمعنى هنا كسر رؤوس الأعداء. الأحجال الخيل التي في قوائمها بياض. لسان العرب مادة (هصر، حجل)
(٢) الديوان ص١٣٧ .

حيث جعل القبر مأوي كل قتيل (إلي الثرى وهو مأواهم إذا قتلوا) كما أن السيف صنع من أجود أنواع السيوف فهو سيف صمصانة مصقول ترى له بريقا في الهيجاء كبريق الكحل في أكفان الحسان ،فالسيوف تتراقص ،ولكن بين الرقاب والأجسام ، وهكذا رسم لنا الشاعر هذه المعاني في لوحة فنية بديعة ، وفي القصيدة نفسها يواصل الشاعر وصف السيف فيقول(١):

حُلـو المَجَسـةِ لا عبـلٌ ولا قضـبُ قَصْـدُ المهـزَّةِ لا كَـزٌ ولا خَطِـلُ

مستحصـد المـتن إمّـا هـزَّه عَجبًـا يميـلُ صـرْف الـردى فيـه ويعتـدلُ

تُزْهـى بـه الطعنـةُ الـنجلاءُ يطعنهـا كأنمـا اسْـتعملتها الأعـين النُجْـلُ

لا تُبْصـرُ المـوتَ إلا حيـث تُبْصِـره مـوتا يسـدّد أحيـانا ويَعْتقـلُ

ويبدأ الشاعر لوحته فيضع السيف في مكانة بارزة من الصورة فبن جودة سبكه ، وجمال صنعته، ومتانة معدنه، وقد تخير لهذا السيف الجميل ما يعبر عن اعجابه فوصفه وصف العاشق المتيم بالحسناء فقال:

حُلـو المجسـة لا عبـلٌ ولا قضـبُ قصـد المهـزة لا كـز ولا خطـلُ

فقد بدأ الشاعر باختيار لفظ (حلو) وكأنما يشعرك بأنه قادم على وصف حسناء استقام عودها، وكمُلَ جمالها فصدر الكلام بـ(حلو)، فالسيف متناسق لقسمات تناسق الغيداء، فلا هو بالطويل ولا القصير، وليس مكتنزا ولا نحيلا، كما أنه ليس يابسا ولا مضطربا، ولقد وفق الشاعر في اختيار ألفاظه التي تضافرت مع حسن التصوير، فأحدثت متعة ، كما اختار من الكلمات ما يجسد جمال الصورة ، ويكشف عن الحالة النفسية

(١) الديوان ص ١٣٨. عبل: مكتنز، فضب: نحيل، كز: يابس، خطل: مضطرب.، مستصد : مستحكم شديد.

للشاعر ، ومن هنا جاءت الكلمات (الأعين الأنجل، الطعنة النجلاء، يميل ، يعتدل، تزهو، تبصر، ..) ولا شك أن هذه الألفاظ إلى جانب ما تحمل من جرس موسيقي، ودلالات تعبر عن الجمال الذي نص عليه في مطلع الصورة (حلو المجسة) ولم ينس الشاعر أن يستخدم لتزين لوحته زخارف لفظية فجاء بالطباق في مثل قوله (لا عبل، ولا قضب/ لا كز، ولا خطل / يميل، يعتدل) والجناس في قوله (الطعنة النجلاء، الأعين النجل) والاستعارة وأسلوب القصر في قوله (لا تبصر الموت إلا حيث تبصره) وهذه الجملة بها معانٍ ودلالات لا حصر لها ففيها أولا: أنه في طريقة تركيبها تأثر واضح بالقرآن الكريم قال تعالى: ﴿لَا **تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)**﴾[١] ثانيا: أن في استخدامه هذا القصر بهذا المعني دليل على أن من تخيل الموت ولم تستطع قوى عقله استيعابه فلينظر إلى هذا السيف وحامله فقد جسد صورة الموت المتخيلة.

ويصف الشاعر السيف بأنه حاسم، وصقيل المتن، معتدل الحد مما يدلل على أصالته وجودة صناعته فيقول[٢]:

هــززت أبيــا حــين أرضــاك عزمــه حســاما صــقيل المــتن معتــدل الحــد

إن سيفًا بهذه الجودة، وحسن السبك حق له أن يعلو ويزهو بنفسه مفتخرًا على كل السيوف[٣]:

وســيف يبــاهي كــل ســيف بنفســه إذا الســيف باهــى بالحمائــل والغمــد

وها هو القائد (ابن زهر) يفخر بسيفه ، ويسميه (ذو الفقار)، ويذكر الشاعر هذا

(١) سورة الأنعام، الآية ١٠٣.
(٢) الديوان ص ٦٢.
(٣) الديوان ص ٦٤.

في قوله[١]:

تقـــول أعاديـــه علـــي مصـــمم بيمـــنى يديـــه ذو الفقـــار شـــهير

وقد تكررت صورة السيف، والرمح في وصف التطيلي للحرب كثيرا ،وغلب عليها الوصف بالاعتدال في الشكل فلا هو ضخم ولا نحيل ، كما أنه حاد قاطع قاسم حتى للأجسام الصلبة كسيوف الأعداء، وإذا ذكر أنه قد تقوس أو أصاب حده اعتلال فمن باب بيان كثرة ضربه لرقاب الأعداء، وإلا فسيف بهذه المتانة والجودة لا يفله إلا كثرة ما قام به من قطع لرقاب الأعداء فيقول[٢]:

والأسمـــر اللـــدن ذا عَشْـــرٍ وواحـــدةٍ بـــين الســـبيلين لا عبـــل ولا قضـــف

أشـدُ شـيءٍ علـى الأصـلاب يقصـفها وقـــد تأود حـــتى كـــاد ينقصـــف

وكثيرا ما وصف التطيلي السيف بانه الفارق بين الحق والضلال، وأنه وسيلة لتحقيق الأمن والأمان، وليس التخويف أو بث الرعب ؛ فالسيف، أو الرمح إذا كانا في يمين فارس شجاع عادل يتمتع بخلق وقيم إسلامية فلن يكون أداة اعتداء ، أو لمجرد التمتع بسفك الدماء ، لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ودحره؛ فهو للتفريق بين الهداية والضلال، ولا يخفى على القارئ الكريم أن ما جاء في شعر (الأعمى التطيلي) من وصف للحرب كان مصاحبا لمعارك المرابطين مع الدويلات المسيحية التي كانت تعاود الاعتداء على المسلمين بين الفينة والأخرى، ومما جاء في هذا المعني ما جاء في مدح التطيلي للقائد علي بن سوسف بن تاشفين فيقول (من الخفيف) [٣]:

---

(١) الديوان ص٩٠.

(٢) الديوان ص ١١١.

(٣) الديوان ص ١٢٧.

بـــين سُمْـــرِ القَنـــا وبـــيضِ النصَـــالِ طُـــــرُقُ المهتـــــدين والضُّـــــلالِ
فـــــإلى الأمـــــن والأمانـــــة أو في غَمـــــراتِ الأوْجـــــال والآجـــــالِ
ومـــع الســـعدِ والســـعادة أو بيـــ ـــين حنـــايا الســـوفِ والأغـــلال

ويمتدح سيف (أبي العلاء بن زهر) في قصيدة من الطويل فيرى أن سيف الممدوح مصحوب بالموت، وكأن الموت له ظل، فما اهتز في الحرب إلا وخلف وراءه القتلى؛ لأنه سيف صقيل، جيد الصنع ، أبيض اللون تغار عليه الشمس ، يخيل للناظر أن الغمد يسيل من ماء جفنه فيقول(١):

وأيَّـــدَ ســـيفًا قلمـــا هـــزَّ عطفَـــه إلى الحـــرب إلا والحِمـــامُ لـــه ظـــلُ
تغـارُ عليـه الشـمسُ مـن كـل ناظـر فتغشـيه عنـه وهـو في متنـه صـقل
يكـادُ يسـيلُ الغمـدُ مـن مـاء جفنـه وفي مَضْـربيه النـارُ والحطـبُ الجـزلُ
تـــرى حيثمـــا أبْصـــرْتَه الغمـــدَ كلـــه وإن لم يُســـلطه قتـــالٌ ولا قتـــلُ

ويصف الشاعر السيف فيعجب من انسيابه في الغمد كانسياب الجدول ، ،كما أن لهذا السيف بريق ولمعان حتى لتخاله في كل مرة تنظر إليه أنه قد أعيد صقله في حين أنه لم يصقل فيقول(٢):

في كـــل بـــرد للعـــوالي مخمـــل
تـــــراه مصـــــقولا وإن لم يصـــــقل

(١) الديوان ص ١٣٢.
(٢) الديوان ص ١٧١. والشاعر في البيت الأخير متأثر بقول أبي العلاء المعري (فلولا الغمد يمسكه لسالا).

ينســـاب في الغمـــد انســـياب الجـــدول

فأعجـــب بـــه مـــا بالـــه لم يســـلل

ومما جاء في وصف السيف وحسن سبكه وجودته قول التطيلي[١]:

بكـــل ممـــوه الصـــفحات مـــاضٍ تُوقيـــــه الحمائـــــل والجفـــــونِ

مـــن البـــيض الرقـــاق إذا انتضـــاه فكلتـــا راحتيـــه لـــه يمـــين

تألَّفَـــه الـــردى طـــرفي نقـــيض فمُشـــتكلٌ عليـــه ومســـتبين[٢]

أما عن الأسلحة الدفاعية (الترس، الدرع، المغفر، البيضة) فلم ترد في شعره إلا نادرا؛ ولعل ما يبرر ذلك أن وصف الشاعر للمعارك جاء ضمن قصائد مدح القادة الذين قادوا هذه المعارك، وحتى ما ذكر منها جاء من باب بيان شجاعة الممدوح في مثل قوله[٣]:

يخلـــعً الغمـــدَ والحمائـــل معتـــا ضـــا بلـــبس الأشـــلاء والأوصـــال

كما ورد ذكر الدرع لبيان حسن صقله، ونصاعة لونه في قوله[٤]:

أثنـــاء كـــل ســـنان عَـــلَّ في زردٍ كأنـــه جـــدول أفضـــى إلى نهـــرٍ

(١) الديوان ص ٢١٥.

(٢) ولمزيد من النماذج في وصف السيف والرمح راجع الديوان ص ٦١/ ٧٧/ ١١٠/ ١٢٨/ ١٣٨/ ١٦٠/ ١٧٠/ ١٩٤/ ٢١٦/ ٢١٨/ ...الخ

(٣) الديوان ص١٢٧.

(٤) الديوان ص٧٧.

الفصل الثالث
(وصف أحداث المعركة وأثارها على الأعداء)

المبحث الأول

وصف أحداث المعركة

شغلت الحروب التي دارت بين المسلمين المرابطين في الأندلس مع أعدائهم من مسيحي الممالك المجاورة (الأعمى التطيلي) فحازت على جانب كبير من شعره ، فلم ينصرف كغيره من شعراء الأندلس إلى وصف جمال الطبيعة، أو اللهو والمجون بل عكف وهو (المكفوف) على وصف المعارك ، ومدح قادتها حيث رصد بمخيلته المعارك رصدا دقيقا، فتحدث عن القادة في المعارك ، والجنود، وآلات المعارك من خيل، وسلاح، وقد سبق الحديث عن ذلك في الفصلين الأول، والثاني ، وفي هذا الفصل سيتحدث البحث عن وصف أحداث المعركة ، وآثارها ، وما حدث للأعداء فيها، ولقد كان للتطيلي نظرة إلى الحروب والمعارك ورافدها منبعان من منابع ثقافته الأول: يتمثل في إرثه العربي ، والآخر: في تعاليم دينه الحنيف، فالأصل في نظرته للحرب أنها لا تخلف إلا الدمار والخراب فهي مهلكة للحرث والنسل، ونارها متشعبة لا تقف عند حد ، بل تتمدد لتكون حروبا كثيرة فيقول(١):

كثـــــيرة النســـــل ولكنهـــــا أقطـــع مـــا في الـــبطن للنســـل

أيِّمُهـــا الثُكـــلُ علـــى أنهـــا وشُـــرْبَها شـــرٌ مـــن الثُكـــلِ

فالشاعر استخدم أسلوب المفارقة في وصفه للحرب حيث إن من طبيعة كثرة النسل أن تزداد أعداد البشر ، بينما الحرب تقلص البشر والشجر، فالحرب تنتج، لكنها لا تنتج إلا الدمار الذي تخلفه وراءها، حيث تتشعب إلى حروب كثيرة تأكل معها

(١) الديوان ص ١٤٤.

الأخضر واليابس، فهي تلد، ولكن بئس ما تلد ، وهل تلد إلا الخراب والدمار، ولعل هذه الصورة مستقاة من إرثه العربي فيبدو أن الشاعر قد استحضر قول زهير بن أبي سلمى حين وقف محذرا عبس وذبيان من إعادة إشعالها بعدما أطفأ هرم بن سنان ، والحارث بن عوف لهيبها فقال[١]:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتموا وما هو عنها بالحديث المرجم

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

هذا عن الحروب بصفة عامة أما عن الحروب التي خاضوها المسلمون مع الصليبيين فنظرته إليها نظرة المسلم الذي اضطره الأعداء إلى خوضها دفاعا عن النفس والدين والأوطان من منطلق قوله تعالى﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)**﴾[٢]، ويصور الشاعر نصر المسلمين بقيادة الأمير (تميم بن يوسف بن تاشفين) على الروم في معركة (أقليش)، وكانت هذه المعركة كما جاء في وصف (محمد عبد الله عنان) "إنه أعظم نصر أحرزه المرابطون على قوات (قشتاله)، وهو نصر كان من أثره توطيد سلطان المرابطين في المناطق الوسطى والشرقية في شبه الجزيرة الأندلسية، وفي إعلاء سمعتهم العسكرية .."[٣] ويصف التطيلى هذه المعركة قائلا[٤]:

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص٢٠/٢١.

(٢) سورة الحج، الآية٣٩.

(٣) عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس. د/ محمد عبد الله عنان، القسم الثالث، الطبعة الأولى، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٤م، ص.

(٤) الديوان ص ٦١. (أقليش، أو أفليج) تقع إلى شرقي طليطلة، وقد وقعت عنها معركة شديدة بين المرابطين وجيوش ألفونس السادس بقيادة ابنه (سانشو) سنة ٥٠٢هـ ، وكان قائد المرابطين أبو الطاهر تميم،

سل الروم في أقليش يوم تجايشوا ... ألم يعلموا أن الفرائس للأسد
تباروا إلى تلك الحتوف فسلهم ... أما كان عنها من محيص ولا بد
ألم يك في الإسلام من مُتعرضٌ ... بكفٍّ ولا في السلم من عرضْ يفدي

فالشاعر يحدد ساحة المعركة (أقليش)، وكيف تجمع النصارى (الروم) من كل مكان (تجايشوا) ثم انظر إلى الفعل (تباروا) مما يعني خروج جيش الروم مختالين بعددهم وعتادهم ، ولذا رفضوا كل الطرق والدعوات التي تجنب الحرب (فسلهم أما كان عنها من محيص ولابد) لقد خاب ظنهم ، وساء تقديرهم حيث ما جال في خاطرهم أن المسلمين أسود، وأن الغلبة في النهاية للأسد، وأن تجايشهم أصبح صيدا ثمينا (ألم يعلما أن الفرائس للأسد).

ويواصل الشاعر- وهو المكفوف- وصفه الدقيق لما يحدث في ساحات المعارك، وكأنه يراها رأي العين، حتى ليخيل إليك أنه أحد فرسانها ،حين يربط بين عدم قبولهم السلام، وعدم علمهم بقوة المسلمين وشجاعتهم، وجهلهم كذلك بأن جند الله هم الغالبون، وأنهم بمثابة القدر الذي لا يمكن دفعه فيقول[1]:

ولا في جنود الله حين أتتكم ... لها من قدير يدفع الهزل بالجد
غداة رماكم كل طود بمثله ... من القصب المنأد والحلق السرد
أعز من الهضب التي قذفت بها ... فما بالكم كنتم أذل من الوهد
رويدكم حتى تروا كيف ترتمي ... بأنفسكم بين الإجازة والرد

وقد أحرزت الجيوش المرابطة النصر (٢٩ أيار ١١٠٨م) واستولت على أقليش عنوة ، وقتل في المعركة ساشو وفر كل من سلم من جنده .

(١) الديوان ص ٦١.

وحتى تدوسَ الخيلُ أوجه فتية كرام عليها غير شؤم ولا نُكد
وتخرجَ من ليل الغبار ولو ترى شوازبَ تردي تحت صمانة تُردي
بكل فتى جلدٍ يخوضُ غمارها على كل نَهَّاض بأعبائها جلد
هناك عرفتم أين أحمد منكم إذا هي جدتْ بالماشيخ والمرد

وبعدما أبان الشاعر أن الروم هم من أصروا على الحرب بدافع القدرة على الغلبة ، شرع في وصف أحداث المعركة ، حيث جند الله الذي لا يدفعه دافع ، وفي إضافة الجند إلى الله إيماء بأنهم الغالبون قال تعالى ﴿ **وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)**﴾[1] لقد أعد المسلمون العدة ، ولم يفق الأعداء إلا وهم تحت وطأة سلاح المسلمين (وحتى تدوس الخيل أوجه فتية) فصار الأعداء بين (الإجازة والسرد)، ووصفه للأعداء بالطود (غداة رماكم كل طود بمثله) جاء ليبين أن جنود الروم كانوا فرسانا مدربين ، فلكل طود منهم طود من المسلمين، ولكن عقيدة الدفاع عن الدين والوطن كانت الفارقة بين الجيشين، ففرق بين مَنْ يقاتل للاعتداء ، ومن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فالأول يقتال للدنيا ،والآخر يقاتل لإحدى الحسنين النصر أو الشهادة ، لقد أصبح جيش الروم- الذي بدأ المعركة مختالا- أذل من الوتد (فما بالكم كنتم أذل من الوهد) وما أن دارت رحى الحرب حتى فعلت الأسلحة، وأدوات القتال التي أعدها المسلمون عملها، وكأن النصارى تفاجأت بقوة المسلمين وجودة أسلحتهم (كأنكم لم تسمعوا بالقنا الملد / وكيف ترتمي بأنفسكم بين الإجازة والسرد) ، فالخيل مضمرة يقودها فرسان فائقي الشجاعة والشدة:

بكل فتى يخوض غمارها على كل نهاض بأعبائها جلد

(١) سورة الصافات، الآية١٧٣.

فالشاعر يصف أجواء المعركة وقادتها، والخيل، وأدوات المعركة مِن سيف ورمح ؛ لذا فقد اشتد غبار المعركة من كثرة ما أحدثته الخيل من سرعات وكر وفر فيقول:

وتخرج من ليل الغبار ولو ترى شوازب تردي تحت صمانة تُردي

ثم يأتي البيت الأخير، وكأنه يرد على البيت الأول (سل الروم) في قوله:

هنالك عرفتم أين أحمد منكم وكان حريا بالبدار إلى الحمد

وكأنه يقول لهم هكذا علا الحق ، وظهر لكم زيف خداعكم (ألم تزعموا أن الصليب، وكأنكم لم تسمعوا بالقنا الملد)، وكان الأجدر بكم وقد انكشف الأمر أن تعلنوا ندمكم، وتقروا بالإسلام والتوحيد بدلا من رفضكم لدعوات السلام (لا محيص ولابد) فكانت العاقبة الندم والخسران.

ويرسم التطيلي لوحة فنية للحرب وأحداثها بعد أن وصف دور القائد والجند وأدوات المعركة (الخيل، والسلاح) وكيف أدى كلٌّ دوره بإتقان تناول أحداث المعركة قائلا(١):

القائلين اقدمي والأرض قد رجفت إلا ربَ من بقايا البيض والسمر
والهام تحت الظُبا والبيض قد حميت فما تطاير إلا وهي كالشرر
أثناء كل سنان علَّ في زرد كأنه جدولٌ أفضى إلى نهر
والخيل شعثُ النواصي فوقها بُهُمُ حمسُ العزائمُ والأخلاق والمرر
شابت من النقع فارتاب الشباب فغُبْرت من دم الأبطال بالشقر

(١) الديوان ص٧٧. علَّ السيف: عد وجهز، بُهُمُ: أبطال وفرسان، حمس العزائم : أشداء، المرر: القوي مأخوذة من الفتل القوي المحكم.(راجع لسان العرب لابن منظور مادة (عل، حمس، مرر) .

ويعبر الشاعر عن لحظة التقاء الجيوش، وحماس الجنود للقاء بقوله (القائلين اقدمي والأرض قد رجفت) ها هي المعركة قد بدأت والتحم الفريقان وتناثرت الهام تحت أقدام الخيل بوقع ضربات السيوف التي حميت وأصبحت ساخنة من كثرة وقع السيوف وتلاقيها مما أحدث شررا وبريقا (والهام تحت الظبا، والبيض قد حميت، فما تطاير إلا وهي كالشرر) إنها سيوف أُعدت وجهزت وأُحسن صقلها ؛ لذا فإن لها بريقا يشبه جدولا يفضي إلى نهر ، ويعبر عن هذا قوله (كل سنان عل في زرد، كأنه جدول أفضى إلى نهر) ويصل بك الشاعر إلى ذروة المعركة فيصف الخيل التي ملأت أجواء المعركة غبارا انعكس عليها فأضحت

(شعث النواصي) ويصف ما عليها من جند بأنهم أبطال فرسان، أشداء العزيمة، يجمعون ما بين القوة والأخلاق أو ما يطلق عليه أخلاقيات الفارس فيقول:

والخيل شعث النواصي فوقها بهم خُمسُ العزائم والأخلاق والمرر

ويواصل شاعرنا (الأعمى التطيلي) وصف أحداث المعركة وقد تلبدت السماء بغيوم الغبار، تطايرت الرؤوس، ويصور لنا الدماء وقد التصقت بشعر الخيل التي تحولت بفعل الغبار إلى اللون الأبيض فلما التصقت بها دماء الأعداء تغيرت إلى اللون الأحمر (الشقرة) فيقول:

شابت من النقع فارتاب الشباب فغُيرت من دم الأبطال بالشقر

وهكذا رسم الشاعر لوحته فألقى الرعب في قلب المتلقي وجعله وكأنما يعيش أحداث المعركة، فيرى الرؤوس وقد تطايرت، والخيل وقد تغير لونها بفعل الدماء المتطايرة، والخيل وقد تعالى صهيلها عند الكر والفر، والسيوف ووقع تلاقيها، إن الشاعر (المكفوف) قد استخدم جلَّ عناصر التصوير، فهناك اللون الأحمر ماثلا في الدماء

(الشقرة) والون الأبيض والأسود في (من بقايا البيض والسمر، شابت من النقع، جدول أفضى إلى نهر)، أما الحركة فماثلة في كل أركان الصورة وتظهر جليا في (الأرض قد رجفت، الهام تحت الظبا، تطاير، حركة الخيل في ميدان المعركة) وهكذا تضافرت عناصر التصوير ليخرج لنا شاعر (مكفوف)- ولكنه موهوب- لوحة فنية غاية في الإبداع .

وأحياناً يأتي الشاعر بأحداث المعركة في ثنايا وصفه لشجاعة القائد أو الجند، فيصف هذه الشجاعة من جلال رسمه لأحداث المعركة ليبرهن على مهارة الفرس وشجاعته ومن ذلك قوله(١):

وربَّ ليلٍ من النقعِ اخترقت ضحى والهصرُ منتظمٌ والهام منتشرُ
ولا نجومَ سوى الأرماح تشبهه وليس فجرٌ سوى التحجيلِ ينفجرُ
رماهم بكتابٍ من كتيبته عنوانه واسمه الأحجالُ والغُررُ

فالشاعر يصف أجواء المعركة في خضم مدحه للقائد، فالمعركة رغم وقوعها وقت الضحى إلا أن شجاعة القائد وجنده وما فعلوه بالأعداء حولها إلى ليل مظلم، فكثرة حركة الخيل وما تبع ذلك من غبار كثيف حولت النهار الأبلج إلى ليل داكن، وبالغ في شدة الظلام وأهوال الحرب أنه لا ضوء ولا بريق يُرى إلا بريق الرماح وما بالخيل من تحجيل في أرجلها أو غرر بيض في مقدمة رأسها(ولا نجوم سوى الأرماح تشبهه، وليس فجر سوى التحجيل ينفجر) ولعل صورة ظلام الليل وقد اخترقته ومضات بيضاء استحضرها الشاعر من موروثه الإسلامي، قال تعالى: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ١٨٧** ﴾(٢).

(١) الديوان ص ٩٢ .

(٢) سورة البقرة، الآية١٨٧.

إن إرسال كتيبة واحدة من هذه الكتائب جعل الأعداء ما بين متدلٍ رأسه فوق صدره أو مقطوع رأسه (والهصر منتظم، والهام منتشر) ولقد صهر الشاعر العديد من عناصر التصوير لإخراج لوحة فنية ، فاللون ماثل في(ليل، ضحى، نجوم، فجر، تحجيل، غرر) والحركة في مثل قوله:(اخترقت، ينفجر، منتشر، رماهم)، كما اختار ألفاظا ذات دلالات تتناسب وجو المعركة من مثل: (الهصر، الهام منتشر، الأرماح، رماهم) ليدل على معايشة الشاعر لهذه الأحداث، ومهارته الشعرية التي جعلته يمتطي ظهر إعاقته(كف البصر)؛ ليتفوق حتى على وصف المبصرين، كما زين الشاعر لوحته بزخارف لفظية أتت عفوية فخدمت الصورة ولم تكن عبئًا عليها في مثل قوله: (التحجيل والأحجال، كتاب وكتيبة، الليل والضحى).

وقد يلجأ الشاعر (المكفوف) إلى استخدام ما يعرف بالنمط العقلي في تناوله أو تصويره، حيث يستدعي من ثقافته ووجدانه وأعماق نفسه صورًا استقرت في اللاوعي حاملة معها القيم الدينية أحيانًا والقومية أحيانًا أخرى، ومثل هذه الصور تكون ذات عمق؛ لأنها اختمرت في النفس واستدعتها ظروف عصرية مناظرة، ومثال ذلك ما جاء في وصف ومدح شجاعة القائد(على بن يوسف بن تاشافين) وفتحه (لطليطلة)، وكيف بدلت المعارك جبالها إلى سلاسل، وجبال موت طحنت على رباها الأعداء طحنًا، فيقول(١):

وكيـــف رأت طليطلـــة العـــوالي بحيـــث يغيـــث باسمـــك أو تُعـــين
نســـفْتَ جبالهـــا بجبـــال مـــوت تـــدور بهـــا رحـــى الحـــرب الطحـــون

وقبل هذا الوصف للفتح وفارسه، يرسم الشاعر صورة لأحداث المعركة التي أدت

(١) الديوان، ص٢١٧.

إلى نسف الجبال وتحويلها إلى رحى للموت، حيث هبت الخيل العتاق فأحدثت في ساحة المعركة عاصفة ترابية لا تسكن، وأصبحت السماء ملبدة بسحائب الموت، وأضحت ساحة المعركة غبارًا متراكما ،ودماءً هتونا، لقد عُلقت التمائمُ في الأعناق ولم تغن عن الموت شيئًا، ويصور ذلك قوله(١):

وقد هبت عتاق الخيل فيها عواصف لا يباح لها سكون
وأنشأت الحتوفُ به سحابًا فنقعٌ راكدٌ ودمٌ هتونُ
وقد جنَّتْ فنُطْتَ على طلاها تمائمَ: بعضُ ما تشفي الجنونُ

ولتجسم وصف أحداث المعركة يرسم الشاعر صورة للخيل، والسيوف في ساحة الحرب، فالخيل (تمرغ) أي تعدو في سرعة فائقة ثم تعود بين (كرٍّ وفر) ويشبه حركتها في شتى الاتجاهات بحركة الأغصان حين تتلاقى ثم تتفرق بفعل الرياح الشديدة، كذا السيف القاطع الذي يختطف هامات الرجال، وقد أبرق في ساحات المعركة من جودة صنعه وثقله، فيقول(٢):

والخيل تمرغ أو تلتف كالحة مثل الغصون تلاقى ثم تنعطف
والصارم العضب يقضي المستميت برقٌ ولكنه للهام مختطِفُ

تأمل كلمات (تمرغ، كالحة، الصارم، العضب، للهام مختطف) إن وقع هذه الألفاظ يجعلك تعايش جو المعارك، فترى سرعة الخيل، وقوة السيف وتطاير الرؤوس.

(١) السابق، نفس الصفحة.
(٢) الديوان، ص١١٠.

ويقول في مشهد آخر من مشاهد وصف الحرب[١]:

والعـــوالي شـــواجرٌ تصـــفُ المـــو ... تَ بأيمـــانِ فتيـــةٍ كـــالعوالي
أقبلوهـــا وجأجـــأ الخيـــل حـــتى ... شـــرقتْ بالنجيـــع أو بالـــرؤالِ
في دجـــى ليلـــة مـــن النقـــع لـــيلا ... ء أَجـــرَّتْ علـــى ثـــلاث ليـــالِ
ظلمـــاتٌ تنـــاكرُ الخيـــلُ فيهـــا ... غـــير مـــا يســـتبينُ بالتصـــهالِ

حيث يصور الرماح والسيوف وقد علت الرؤوس وأصابت الأعداء، وقام فتية (الجنود) بتصفيف قتلى الأعداء، وقد كانت هذه المعركة طويلة ظلت ثلاث ليال متصلة، وبلغ من شدة ظلمة أجواء المعركة أن الخيل كانت لا تكاد ترى بعضها البعض، وكان صهيل الخيل هو المميز لها، إن حربًا بهذه الضراوة لابد أنها أنهكت الخيل لذا حرص الشاعر على بيان أن الجنود قد قاموا بدعوة الخيل إلى المشرب والمأكل وكان من طبع العربي أنه يفضل فرسه في المشرب والمأكل على نفسه، ولذا حرص الشاعر على وصف مشرب ومأكل الخيل فذكر أنها قد ارتوت حتى غصت، وأكلت من أفضل ما يمكن أكله من عشب (الرؤال) أفراخ النعام، والمتأمل في وصف الشاعر يجد الصورة مجسمة حيث الرماح مرفوعة. فهناك الحركة في (شواجر، تصف، أجرَّت) وأرى أن قوله:

أقبلوهـــا وجأجـــأ الخيـــل حـــتى ... شـــرفت بالنجيـــع أو بالـــرُّؤال

من الأولى أن يأتي بعد نهاية وصفه للحرب واستمرارها(ثلاث ليال)؛ لأنه من المنطقي دعوة الخيل إلى الشراب والمأكل بعد المعركة وليس في أثنائها، فقد سبق البيت ذكره للرماح والسيوف إشارة إلى بدء المعركة، ويؤكد ذلك قيام الجنود بتصفيف القتلى، ثم أعود فأقول لعل الشاعر أراد في البيت الأول(تصف الموت بأيمان فتية كالعوالي) أن

(١) السابق، ص١٢٨.

المعركة قد انتهت، وبالتالي ذهبت الخيل إلى الشراب، والطعام، وما جاء بعد ذلك من ذكر ارتفاع الغبار، واستغراق المعارك ثلاث ليال حتى أنكرت الخيل بعضها البعض جاء على سبيل الحكاية بعد نهاية الحرب، فكلا الأمرين جائز عقليا.

ويصور معركة قادها القائد(أبو يحيى) حدثت في طليطلة، حيث يصف الحرب من خلال وصف شجاعة القائد وجنده، فيقول[١]:

أولى لهـــم ثم أولى للصـــليب بهـــا ... مـن عـارض صـوبُهُ الأسـيف والأسـلُ

وللعـــدا دونهـــا مـــن حـــر ملحمـــة ... يكـــاد منهـــا الهـــواء الرطـــب يشـــتعل

ومـــن رحـــى لمنـــاياهم يـــدور بهـــا ... يـــوم تضـــيقُ بـــه الآفـــاق والســـبلُ

يـــوم شـــتيمُ المحيَّـــا لا يزينـــه ... حلـيٌ وإن كـان لا يـزري بـه العطـلُ

وأعصـلُ النـاب أن يغـر الكمـاة بـه ... كـــذلك الحـــرب في أنيابهـــا عصـــلُ

فالشاعر يصف اليوم الذي اشتعلت فيه المعركة بأنه كان يوما كريها على الأعداء، فقد بلغ من حرارة وشدة وطيس المعركة أن الهواء الرطب في الساحات المفتوحة حولته شدة المعارك إلى نيران تلظى، إن كثرة القتلى بين جنود الأعداء (رحى لمناياهم) فقد سدت في وجههم كل الطرق والآفاق (يوم تضيق به الآفاق والسبل) يوم كذلك(شتيم المحيا) أي المنظر. والملاحظ أن الشاعر كرر كلمة يوم (يوم تضيق به الآفاق، يوم شتيم المحيا) وهذا التكرار يدل على عظم وثقل هذا اليوم، فهو ثقيل على الأعداء، حيث رحى الموت تطحن جنودهم لذا عدوه يوما كريها، كما أن هذا اليوم بالنسبة لجيش المرابطين يمثل يوم النصر، فصورته لا شك على النقيض من صورته عند الأعداء.

(١) الديوان، ص١٣٩.

لقد أصبح أعداء (أبي يحيى) كالحطب، حيث ذكر الشاعر أن سبب اشتعال الحروب وشدة وهجها نابع من أن حطب الاشتعال كثير ومتوفر، ويشير بذلك إلى رؤوس الأعداء[١]:

إن حـــش نار الحـــرب قامـــت لهـــا أعـــــداؤه كالحطـــــب الجـــــزل

ثم يصف الحرب بالمرأة والموت بالفحل (الذكر) ولما كان (الموت والقتل) هو من يقوم بالتلقيح، فإن النتاج لن يكون غير الموت، وهو يقصد بذلك أن حربا تلقح بالموت لن تلد إلا الدمار(تنتج غلاما أشأم) كما قال زهير، ويصور التطيلي هذا المعنى في قوله:

في كـــل هيجـــا لقحـــت نفســـها بالمـــوت فاســـتغنت عـــن الفحـــل

ويواصل الشاعر رصد أجواء المعركة، فيذكر أن السيوف التي تقطع الهام، لقد أسالت الدماء الساخنة حتى أضحت ساحة الحرب كالمرجل الذي يغلي، ولم لا؟ والخيل والنبل تمور في ساحة الحرب تخطف رؤوس الأعداء، لقد بلغ من رعب الأعداء، وما دخل قلوبهم من ذعر أنهم يموتون بمجرد رؤية القائد دون طعن فيقول[٢]:

في عـــارض للمـــوت مثعنجـــرٍ أول مـــا يبـــدأ بالهطـــل
تمـــورُ فيـــه الخيـــل والنبـــل لا تفـــرق بـــين الخيـــلِ والنبـــلِ
إذا اختلـــى ســـيف بـــه هامـــة لم تـــر إلا مـــرجلا يغلـــي
مـــاذا تريـــد الـــنفس مـــن مهجـــةٍ أنـــت بهـــا أولى مـــن النصْـــل

وفي قصيدة أخرى من السريع، يصف الشاعر الحرب وأحداثها، فيقول[٣]:

(١) الديوان، ص١٤٤.
(٢) السابق ص١٤٤.
(٣) الديوان، ص١٦٠.

والخيـــل فوضـــى تبـــاري في أعنتهـــا تعـوم في الـدم أو تعلـو علـى القلـل

والحـرب تُلحـم نصـل السـيف كـل فـتى لا يلحـم السـيف إلا هامـة البطـل

فالخيل تجري في كل اتجاه مقبلة ومدبرة (فوضى) و قد غاصت في دماء الأعداء (تعوم في الدم) أو تطأ أقدامها رؤوس القتلى(أو تعلو على القلل)، ولعل اختيار الشاعر لهذه المفردات(فوضى، تعوم في الدم، تعلو على القلل) فيه إيحاء بأن هذه الحرب قد فقدت كل سبل العقلانية التي تناثرت على أرضها قتلى العدو، وتجعل المتلقي يتخيل هيجان الخيل، والدماء التي غدت كالبحور، ورؤوس القتلى التي أضحت كالقلل، كل ذلك يعطي انطباعا بشراسة الحرب، لذا تجد الشاعر لا يحدثنا هنا كما اعتاد في صور أخرى للمعارك وعن غبار المعركة الذي جعل الضحى ليلا؛ لأن الغبار يحتاج إلى ساحة معركة غير مبللة، أما ساحة هذه المعارك فهي ليست مبللة فقط بل أضحت بحارًا من دماء الأعداء، فالدماء منعت تطاير الغبار، وليؤكد كثرة القتلى ذكر أن السيوف رغم ما يصيبها من نتوء في حدها بسبب كثرة قطع رقاب الأعداء إلا أن ما يصبها من سخونة في حدها يعيد التأم النتوء فتعود وكأنما صقلت من جديد. ومما وصف به التطيلي الحرب قوله من مشطور الرجز[١]:

والحـــرب تغشـــى مـــدبرا بمقبـــل

ظمـــأى إلى نفـــس الشـــجاع البطـــل

وقـــد نهلـــت فيـــه كـــأن لم تنهـــل

مختالـــــة في هبـــــوات القســـــطل

فهو يصف الحرب بأنها كالظمآن الذي لا يرتوي، إنها لا تروي إلا من دماء

(١) الديوان ص ١٧٠.

الأبطال وكلما ارتوت من الدماء ازدادت ظمأ، وكأن الحرب نيران مشتعلة كما سبق وصفها كلما أمدت بطعام زادت اشتعالا، ودماء الأعداء هي وقود الحرب أو النيران، وفي القصيدة ذاتها يصف التطيلي أحداث المعركة فيقول(١):

طالـــت بـــه الحيـــاة أو لم تطـــل

في غمـــرة مـــن الـــوغى لم تنجلـــي

تلعـــبُ بالـــرؤوس بـــين الأرجـــل

إذا ارتمـــت بالمعلمـــين البُسُـــل

رأيـــت نارا ترتمـــي بشـــعل

وفي المقطع الأول وصف الشاعر الحرب بأنها ظمأى ولا يرويها إلا دماء الأعداء، وفي هذا المطع صور أحداث المعركة، فأوضح كيف أن الموت قضي على الأبطال المدربين البواسل، وأن الرؤوس أضحت تحت أرجل الخيل، أنها حرب شديدة الوطيس من مات فيها قد يكون أحسن حظا ممن بقي على قيد الحياة ؛ لأن من بقي سيعيش مكلوما بإعاقته أو سجين حالته النفسية (وأقبح الموتَ بمن لم يقتل) .

ويصف التطبلي أجواء المعركة التي قادها (أبو القاسم بن حمدين) بأنها كانت حروبا شرسة بلغ من شدتها أن غبار المعارك قد حجب الشمس ، وحول النهار إلى ظلام دامس لا يرى فيه برق إلا وميض السلاح فيقول(٢):

جميـع أمـورِ النـاس في كـل موقـفٍ بـــه الليـــلُ نقـــعٌ والرمـــاحُ نجـــومُ

(١) الديوان ص ١٧٠.

(٢) الديوان ص ١٨٢ .

ويعطينا الشاعر صورة تبلور أحداث معركة قادها الأمير (ابن زهر) وقد نظمها على بحر الوافر فيقول(١):

والخيـــل لا حقـــة البطـــون كأنهـــا ... فضـــلاتُ مـــا جـــرتْ مـــن الأرســـان
في غمـــرةٍ مـــلء الفضـــاء حبالهـــا ... قِصـــدُ القنـــا وجمـــاجم الفرســـان
يخـــرجن مـــن خلـــل الغبـــار كأنهـــا ... شـــرر تطـــاير مـــن خـــلالِ دخـــان
والمـــوت ممنـــوع الحـــريم مباحـــه ... قـــد حـــان بـــين البـــيض والأجفـــان
وأهـــاب بالأرواحِ في أجســـادها ... فأتتـــه بـــين الـــذلِ والإذعـــان
والـدهرُ قـد هـدَّ القلـوبَ فأصـبحتْ ... مشـــغولةً حـــتى عـــن الخفقـــانِ
وهـــي الـــوغى لا مـــا تخيـــلَ عـــاجزٌ ... جمـــعَ الســـلاحَ وعـــدة الأقْـــرانِ
وإذا المنـــايا طـــار عنهـــا فـــارس ... فـــالأرضَ حـــتى يســـتحيلُ أمـــاني

يصف الشاعر (المكفوف) أحداث المعركة وصفا يحتاج إلى بصر وبصيرة معا، بصر يدرك هذه الخيوط المركبة التي تميزت بها الصورة حيث شملت كثيرا من عناصر التصوير الحركي واللوني، كما تحتاج إلى بصيرة تجلو ما خفي خلف خطوط اللوحة فهناك معان تقرأ من دلالات الكلمات والتصاوير، فالشاعر وصف الخيل بأنها ضامرة، وكثيرا ما وصفت الخيل بذلك للدلالة على خفتها وسرعتها ، والجديد في التشبيه هنا أنه لأول مرة يصف هذا الضمور بأنه يشبه الفضلات التي علقت بأرسانها، وهو تشبيه فريد لم أجد ما يناظره في الديوان يقول:

(١) الديون ص ٢١٢ . لاحقة البطون: ضامرة، البيض: السيوف، الأجفان: الغمد ، القلب هنا بمعن: البئر، الحواني : الأقواس .

والخيـــل لاحقـــة البطـــون كأنهـــا فضـــلات مـــا جـــرت مـــن الأرســـان

كما أن هذه الخيل الضامرة تكر ، وتفر بحثا عن رؤوس الأعداء فهي بهم موكلة (قصد القنا وجماجم الأعداء)، إن حركات الخيل المسرعة بين الكر والفر أحدثت غبارا سد الأفق فانعدمت الرؤية إلا من خلال شرر تطاير بين الغبار الذي يشبه الدخان ، وهذا الشرر مبعثه تقاطع السيوف:

يخـــرجن مـــن خلـــل الغبـــار كأنهـــا شـــرر تطـــاير مـــن خـــلال دخـــان

ويصف شدة الحرب وقسوتها بأنها خلعت القلوب بل أصابتها بالتوقف عن النبض (الدهر قد هدَّ القلوب فأصبحت مشغولة حتى عن الخفقان)، ومن جمال ما جاء في وصف الشاعر وصفه القلوب بالآبار فإذا كانت الآبار تمتح بالدلاء المشدودة بالحبال، فإن القلوب في المعركة تمتح هي الأخرى ولكن بالرماح وبلا أشطان أي حبائل.

ولا عجب إذن بعد هذا الوصف الرائع لأحداث الحرب أن يطلب ممن يتخيل معنى الوغى أن يشهد هذه المعركة فيقول[١]:

وهـــي الـــوغى لا مـــا تخيـــل عـــاجز جمـــع الســـلاح وعـــدة الأُقـــران

وإذا المنـــايا طـــار عنهـــا فـــارس فـــالأرضُ حـــتى يســـتحيل أمـــاني

وهكذا وصف لنا الشاعر أحداث الحرب في أكثر من صورة وفي كل لوحة تجد إبداعا، وكأنها معارك خاضها في جولات متعددة فتنسى أنك أمام شاعر مكفوف.

□

(١) الديوان ص ٢١٢.ولمزيد من النماذج راجع الديوان ص ٦١/٧٧/١٣٧/١٣٨/١٣٩ الخ

المبحث الثاني

وصف أثار المعركة على الأعداء

يعدُّ وصف الأعداء وحالهم في المعركة من العناصر الرئيسة في وصف المعارك، فهو الطرف المقابل في المعركة، ويصعب فصل ما حدث للأعداء عن وصف شجاعة القائد وجنده، كما أن وصف أحداث المعركة يتطلب ذكر ما أصاب الأعداء ، وحتى لا يكون هناك تكرار لصور سبق تناولها- رغم صعوبة ذلك- سأكتفي ببعض النماذج التى تكشف نتائج المعارك ، وما حدث للأعداء، ومن ذلك ما جاء في قول (الأعمى التطيلي) [١]:

تسـربلوا للحـرب أثوابهـا ليسـوا بأنكـاسٍ ولا عُـزلِّ

وأوردوا أعـداءهم مـوردا رنقـا مـن الغسـلين والمهـل

فالشاعر بعد أن وصف في أبيات سابقة القائد وجنده ، وأدواتهم، ذكر أن الجنود قد لبسوا ثياب الحرب بما يعني استعدادهم ، فلما دارت رحى الحرب، أوردوا أعداءهم موردا غير صالح للحياة ، مما يعني أنهم قد وقعت بهم الواقعة، ، ولذا استخدم ألفاظا تؤكد هلاكهم (الغسلين، والمهل)؛ ليبين جحيم مصيرهم، وقد يكون أراد أنهم لا يجدون موردا للشرب إلا جراحهم فيمتصون ما بها من قيح ، أو صديد تماما كما يفعل أهل النار .

ومما وصف به الشاعر به الشاعر أحداث المعركة، وجاء فيه ذكر مصير الأعداء ما جاء في قوله[٢]:

---

(١) الديوان ص١٤٥.

(٢) الديوان ص١٧٠ .

في غمـــرة مـــن الـــوغى لم تنجلـــي
تلعـــب بالـــرؤوس بـــين الأرجـــل
إذا ارتمـــت بالمعلمـــين البُسُـــلِ

فالشاعر يشير إلى ما حدث للأعداء، فيصور القتلى وقد تطايرت منهم الرؤوس، وأصبحت كالدمى تتقاذفها الأقدام، كما يصف الجند بأنهم مدربون وبواسل.

وها هو الشاعر يذكر في إحدى قصائده شجاعة (أبي جعفر بن أبيّ) ، ويصف أحداث المعركة، وفيها يتناول ما آل إليه حال الأعداء فيقول(١):

فلـــم تـــرى إلا عـــاثرا بدمائـــه يحـــاذر كلْمـــا أو يـــدافع عـــن كلْـــمِ

فجنود الأعداء صاروا إما قتيلا مدرجا في دمائه، وإما مكلوما، أو مرعوبا يخشى الموت أو الإصابة.

وفي مدحه (لعلي بن يوسف بن تاشفين) في قصيدة من الوافر بمناسبة أن عليا جهز جيشا يزيد عن مائة ألف فارس، فوصل قرطبة ، فأقام بها شهرا، ثم خرج منها غازيا إلى مدينة (طلبيرة) ففتحها عنوة بالسيف، وفتح من أحواز طليطلة سبعًا وعشرين حصنا، وفتح مجريط ووادي الحجارة ، ووصل إلى طليطلة فحاصرها ثمانية أيام ، ثم فك الحصار عنها؛ إذ كان يدرك أنها تحتاج إلى استعدادات قوية، وألات حصار(٢)، ويقول مطلعها مشير إلى ذلك(٣):

---

(١) الديوان ص ١٩٤ .

(٢) راجع هامش الديوان ص ٢١٦ .

(٣) الديوان ص ٢١٦ . وألفونش هو صاحب أرجوان ، وهو المشهور بابنرذمير، و المستعين هو أحمد بن المؤتمن من أمراء سرقسطة، ويعرف بالمستعين الأصغر وقد حاول الأفونس أن ينتزع منه سرقسطة، فجاءته الأنباء أن المرابطين دخلوا الأندلس ففك الحصار فطلب المسيعين النصر من علي فنصره.

سل الأذفونش أين الحرب منه وربّتما أجاب المستعين

وفي القصيدة يتناول الشاعر ما حدث لجنود الروم فيقول(١):

وقد هبت عتاق الخيل فيها عواصف لا يتاحُ لها سكونُ

وأنشأت الحتوف به سحابا فنقع راكدٌ ودمٌ هتونُ

فالشاعر يذكر ما حدث للعدو، ويجسد كثرة القتلى قوله: (أنشأتْ الحتوف به سحابا، ودم هتون).

ويصف كذلك كثرة دماء الأعداء فيقول: (دماء جرت منها التلاع بمثلها)(٢).

ويصور التطيلي مصير الأعداء وقد أكلتهم السيوف (النار)، وحشروا في قبورهم من كثرة تعدادهم فيقول(٣):

نار تسوق العدا من حيثما حشروا إلى الثرى وهو مأوهم إذا قتلوا

ويقصد بالنار هنا السيف، وتأمل لفظ (ساق) مما يعني أن الأعداء قد استسلموا، وأصبحوا مسلوبي الإرادة، ثم انظر الي قوله: (حشروا إلى الثرى) إنه يدلل على دفنهم جماعات مقبورين، ويؤكد ذلك قوله (قتلوا) .

وفي صورة أخرى يبين الشاعر كثرة القتلى إذ قام الجنود بتصفيفهم في صفوف فيقول(٤):

والعوالي شواجر تصف المو ت بأيمان فتية كالعوالي

---

(١) الديوان ص ٢١٧ .

(٢) الديوان ص ٢٣٩ .

(٣) الديوان ص ١٣٧.

(٤) الديوان ص ١٢٨ .

ويسبق هذا البيت في القصيدة نفسها، (والتي جات على وزن الخفيف)، الملابسات، والأحداث التي كان من نتيجتها كثرة قتلى الأعداء بهذه الكثافة (تصف الموت) حيث يقول الشاعر:

وســـيوف الأبطـــال ترعـــد ممـــا فعلـــتْ في جمـــاجم الأبطـــالِ

إلى أن يقول:

يـــترك المعلمـــين في الحـــرب كالبـــد ن ومـــا أُعلمـــوا بـــه كالنعـــالِ

يخلـــع الغمـــدَ والحمائـــلَ مُعتـــا ضـــاً بلـــبس الأشـــلاء والأوصـــالِ

صَـدِئتْ صـفحتاه مـن مهـج القتـ ـلـى علـى قـرب عهـده بالصـقال

فهذه الصور تؤكد ما حدث للأعداء ، فالسيوف كانت تبرق أثناء ضرباتها رقاب الأعداء ، وقد استبدل الجند بملابس القتال (الغمد والحمائل) أشلاء الأعداء ، حتى السيوف المصقولة فُلت من كثرة الطعن رغم حداثة صقلها، وجودة معدنها، وهذا دليل على أن قتلى الأعداء كانوا بالكثرة التي تجعل الجنود يصفونهم صفوفا

وفي قصيدة أخري من البسيط يمدح فيها الشاعر القائد (أبا العلاء بن زهر) ويشير فيها إلى ما أصاب الأعداء في المعارك فيقول[١]:

والهـام تحـت الظبـا والبـيض قـد حميـت فمـــا تطـــاير إلا وهـــي كالشـــرر

فالشاعر يتحدث عما أصاب جنود الأعداء من هزيمة منكرة حتى تساقطت الرؤوس، وبلغ من شدة الضرب بالسيوف أنها سخنت (حميت) وأصبح الشرر يتطاير منها .

(١) الديوان ص ٧٧.

ويتحدث عن سيف القائد الذي أصبح عنوانا للموت (ترى الموت الزؤام يجول فيه، تحش به المنية كل قرم) إلى آخر هذه الصور التي نجح الشاعر من خلالها تصوير ما آل إليه حال الأعداء.

الخاتمة

(١) لم يأت شعر الحرب في ديوان الأعمى التطيلي في قصائد مستقلة ، وإنما جاء في خضم قصائد المديح ، والتي كانت في أغلبها في مدح الأمراء والقواد في عهد دولة المرابطين.

(٢) أحسن الشاعر، وأجاد في توظيف القيم البلاغية المختلفة في وصفه للحرب، وقوادها ، وجنودها، وآلاتها، وآثارها، مما ساعد على تجسيدها، وتشخيصها في روعة وجمال ملموسين، وواضحين ،فرسم أجمل الصور ، وأبدعها مستخدما عناصر التصوير من ضوء، ولون ، وحركة، وغير ذلك ممطيا ظهر إعاقته.

(٣) بالرغم من أن الشاعر مكفوف البصر، إلا أن كثيرا من ملامح وصفه للحرب، وما يتصل بها، وكثيرا من صوره الفنية في سياق شعر الحرب قد اعتمد فيها على حاسة البصر، وكأنه يشاهد المعارك، ويعاينها مما يدل على براعته ، ودقته في وصف الحرب، وما يتصل بها، وحسن إدراكه لطبيعة الحروب، وما يحدث فيها، وما يتطلبه وصفها وتصويرها، وهذا لا يعني خلو الوصف عنده من نمط التصوير العقلي حيث لا غنى لمكفوفٍ عن التخيل العقلي، واستدعاء وتوظيف التراث العربي، والإسلامي في رسم صوره .

(٤) المعجم الشعري لدى الأعمى التطيلي متقارب إلى حد ما مع الشعراء الفرسان، ومع ذلك كانت له خصوصية ميزت لغته، حيث تناغمت الألفاظ مع الانفعالات، والحالة النفسية للشاعر ، فجاءت اللغة معبرة، وتحمل دلالات لغوية، وبلاغية

وظفها الشاعر في خدمة صوره الشعرية إبان وصفه للمعارك مما جعلها تؤدي وظيفتها المنوطة بها في كشف معانيه، وغاياته في جمال ، ودقة.

(٥) اهتم الشاعر في وصفه لأدوات المعارك بالجانب الهجومي منها (كالسيف والرمح، والسهم) بينما لم يذكر من أدوات الجانب الدفاعي إلا القليل (كالمغفر، البيضة، الدرع). بما يفيد قلة استخدام الفارس لها ، وما ذكر عرضا جاء لإثبات شجاعة الفارس الذي لا يحتاج إليها.

(٦) اصطبغ شعر الحرب عند التطيلي بصبغة إسلامية ، حيث احتوى على المعاني الإسلامية للجهاد؛ وذلك لأنه كان يصف معارك حدثت بين المسلمين المرابطين في الأندلس، والممالك المسيحية المجاورة لهم ، والطامعة فيهم .

(٧) لم أجد في ديوان الشاعر مشاركة منه في شعر المجون، أو وصف الطبيعة مع شهرة ذلك في الشعر الأندلسي ؛ وكأن الشاعر عاش مشغولا بالجهاد الذي حرمته الإعاقة من المشاركة الفعلية فيه ، فآثر إلا أن يشارك ولو بالكلمة.

فهرست المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.

أولا: المصادر

١ ديوان الأعمى التطيلي جمعه، وحققه، وشرحه الدكتور / محي الدين ديب ، وقدم له دكتور إحسان عباس، طبعة المؤسسة الحديثة للكتاب لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٤م.

ثانيا: المراجع

١ بغية المتلمس في تاريخ رجال الأندلس، يحيى الضبي، تحقيق أبراهيم الإبياري، دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٩م.
٢ جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي مطبعة بولاق الطبعة الأولى١٣٠٨هـ .
٣ الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، وأولاده، الطبعة الأولى١٣٦٤هـ /١٩٧٩م .
٤ ديوان أبى تمام تحقيق محمد عبده عزام ، الطبعة الرابعة، دار المعارف١٩٧٩م .
٥ ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعه، الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني ثعلب، طبعة الهيئة العامة للكتاب ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م.
٦ ديوان عامر بن الطفيل، دار بيروت ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م .
٧ ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت، حققه عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة و الإرشاد القومي
٨ ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، دار الأندلس ، ١٩٨٣م.
٩ ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق وشرح د/ أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي

بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٩١.

١٠ ديوان عنترة بن شداد ومعلقته، تحقيق وشرح الأستاذ خليل شرف الدين ، مطبعة الهلال بيروت، ١٩٨٨م.

١١ ديوان المتنبي شرح عبد الحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٦م.

١٢ الزخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق دكتور/ إحسان عباس، طبعة دار الثقافة بيروت، ١٩٧٩م .

١٣ رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق دكتور نعمان عبد المتعال القاضي، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٣م.

١٤ شرح سقط الزند لأبي العلاء المعري نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، نشر الدار القومية القسم الاني ١٩٦٤م .

١٥ شعر الجهاد في الحروب الصليبية، د/ محمد علي الهرفي، الطبعة الأولى دار الاعتصام، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م .

١٦ صحيح البخاري للعلامة أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، ضبطه ورقمه، د/ مصطفى ديب، دار بن كثير دمشق، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م ،الجزء الخامس

١٧ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، زكريا القزويني، تحقيق فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة بيروت، ١٤٠١هـ /١٩٨١م .

١٨ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق د/ طه الحاجري، ود/ محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٥م.

١٩ عيون الأخبار أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المجلد الأول كتاب الحرب ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م.

٢٠ قلائد العيقان للفتح بن خاقان، طبعة بولاق ١٢٨٣هـ .

٢١ كتاب أسماء خيل العرب وفرسانها، لأبي عبد الله محمد الأعرابي، تحقيق ودراسة د/ محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م .
٢٢ كتاب السلاح أبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .
٢٣ المثل الثائر ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق د/ أحمد الحوفي، ود/ بدوي طبانه، دار نهضة مصر ، القاهرة بدون تاريخ.
٢٤ مجمع الأمثال للميداني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٧٨م .
٢٥ المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد الأندلسي، تحقيق د شوقي ضيف، الطبعة الثالثة، دار المعرفة ،١٩٨٠م .

الرسائل العلمية:

١ أثر كف البصر على الصورة عند أبي العلاء المعري رسمية السقطي، رسالة ما جسير مخطوطة ، ماجستير كلية الآداب القاهرة، ١٩٦٥م .
٢ الأعمى التطيلي حياته وأدبه ، صادق عبد الحليم محمد حسين، رسالة دكتوراه جامعة الأزهر، ١٩٨٦م .
٣ الأعمى التطيلي ، دراسة لغوبة، عبد الحميد عليوه، رسالة ماجستير كلية الألسن، جامعة عين شمس ، ١٩٧٦م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص البحث باللغة العربية	٩٠
ملخص البحث باللغة الإنجليزية	٩١
المقدمة	٩٣
التمهيد: الشاعر، النسب، النشأة، روافد ثقافته	٩٧
نسبه ونشأته	٩٧
حياته العائلية	٩٩
روافد ثقافته	١٠٠
أولًا: الثقافة الدينية	١٠٠
ثانيًا: الثقافة التاريخية	١٠١
ثقافته الأدبية	١٠٢
الفصل الأول: وصف القائد والجند	١٠٤
المبحث الأول: وصف القائد	١٠٤
المبحث الثاني: وصف الجنود	١٢١
الفصل الثاني: وصف أدوات القتال	١٣٣
المبحث الأول: الخيل	١٣٥
المبحث الثاني: وصف السلاح	١٤٣

الفصل الثالث: (وصف أحداث المعركة وأثارها على الأعداء)	١٥٤
المبحث الأول: وصف أحداث المعركة	١٥٤
المبحث الثاني: وصف أثار المعركة على الأعداء	١٧٠
الخاتمة	١٧٥
ثبت المصادر والمراجع	١٧٧
فهرس الموضوعات	١٨٠